الأخلاق عند الغزالي

تأليف

الدكتور زكي مبارك

قدم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور
في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية
بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور في الآداب

« وكلما عظم المطلوب وشرف ، صعب
مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته »
الغزالي

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

صورة المؤلف



لم يغد رسمى ضئيلا كالبدر عند المحاق
إلا لأن الليالى وما لها من خلاق
صيرنني فى بلادى غضنفراً فى وثاق

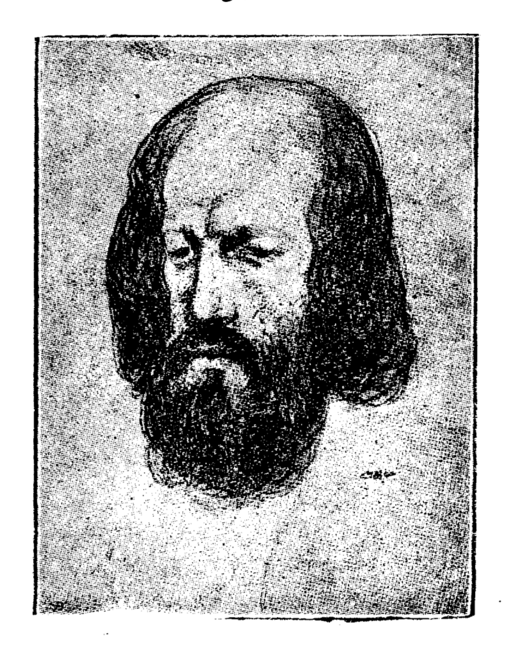
زكي مبارك

الدكتور منصور فهمي

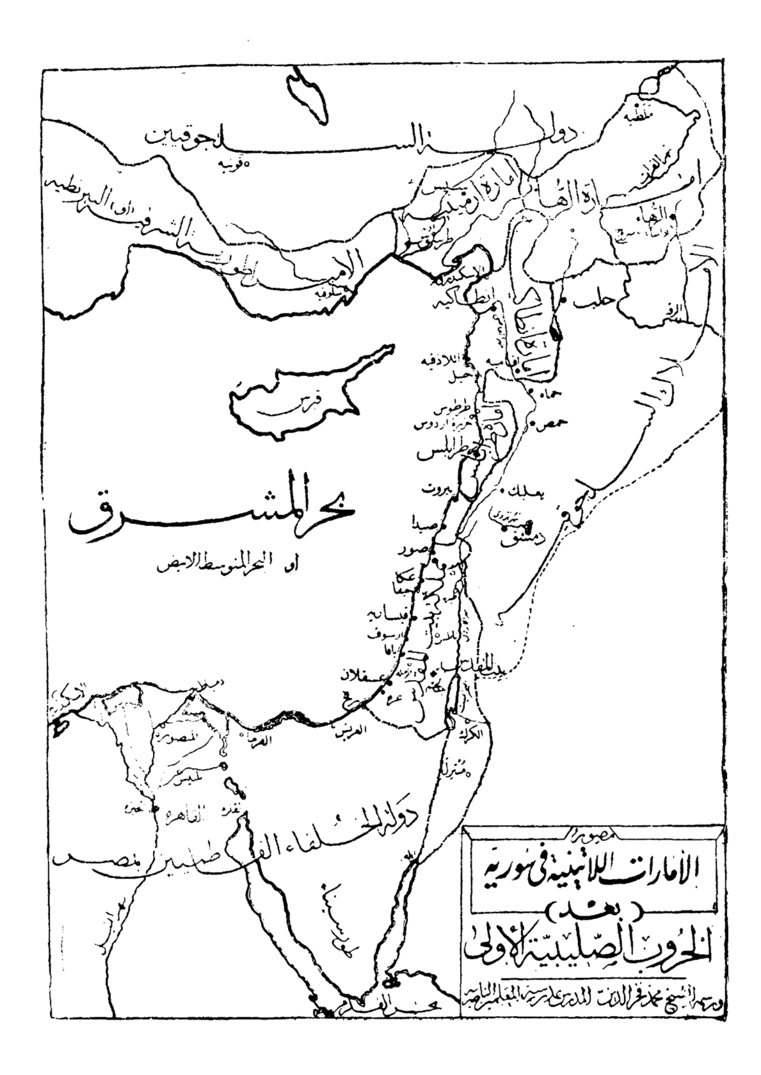


أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية

الغزالى

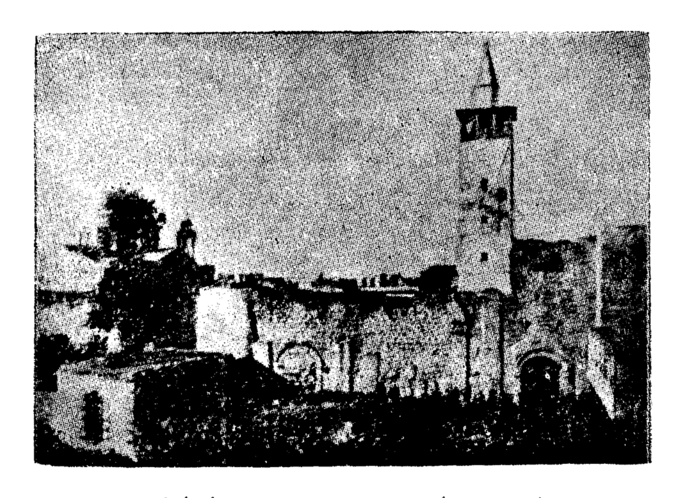


صورة تخيلها الأستاذ جبران خليل جبران


مصور
الامارات اللاتينية في سوريه
(بعد)
للحروب الصليبية الاولى
دولة السلجوقيين
قونيه
ملطيه
امارة الرها
الرها
امارة ارمينيه
الامبراطوريه الشرقيه
حلب
انطاكيه
اللاذقيه
جبله
حماه
حمص
طرطوس
طرابلس
بيروت
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
عكا
قيساريه
ارسوف
يافا
عسقلان
بيت المقدس
الكرك
قبرس
بحر المشرق
او البحر المتوسط الابيض
العريش
الفرما
المنصوره
بلبيس
القاهره
دولة الخلفاء الفاطميين بمصر
بحر القلزم

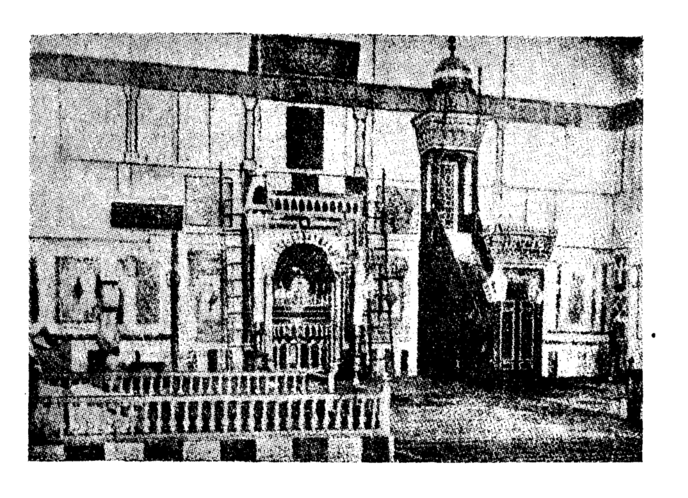
صخرة بيت المقدس

باب توما فى دمشق



نزل به يزيد بن أبى سفيان لما حاصر المسلمون دمشق فى أيام أبى بكر
ونزل به حميد بن قحطبة لما حوصرت دمشق فى ابتداء الدولة العباسية

جامع دمشق



الأخلاق عند الغزالى

تأليف

الدكتور زكى مبارك

قدم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور
فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية
بدرجة « جيد جداً » ولقب دكتور فى الآداب

« وكلما عَظم المطلوب وشَرف ، صعب
مسلكُهُ ، وطال طريقُه ، وكثُرت عقباتُه »
الغزالى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

مقدمة

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوباً بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنه المفتريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمى كتب إليه خطاباً يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالتثبت ، ويدعوه إلى مقابلة الشر بالصفح الجميل .

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة ، ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب .

أخى العزيز :

طالما وجدنا فى تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضاً بالنقد والتجريح . وطالما غلوا فى النقد حتى انقلب إيذاء وإيلاماً .

ولكن هل أخفت شدة النقد يوماً فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضن الزمان على المنتقدين بما هم أهل له : من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس إلا أداة لإظهار الحقائق واضحة جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل فى إظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه إلى موارد العلم ، وخوضه فى مسائل كانت سبباً فى يقظة هذا الباحث الأخير .

***

إلا أنه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا فى أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات ، لكى نلتمس لهم العذر ،

إذا رأيناهم لم يصلوا إلى الأغوار البعيـــدة التى ينبع منها المـاء صافيا نقيا .

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجر من ثريات الـكهرباء ! ولـكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسىّ والنبال ، إذا لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبعث من زيوت المصابيح ، لأنها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام .

فإذا رأينا الغزالى غفل عن حقيقة تنبهنا نحن إليها ، أو أغلق عليه موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، أو تناقض فى فهم فـكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف كانت وسائله إلى الفهم والإدراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتثريب .

إن أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيراً على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيراً من الموضوعات ، لأن فـكرة الإخصاء وتوزيع الأعمال ، لم تـكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعةً لله . فمن ثم حفظوا كثيراً ، وكتبوا كثيراً ، ولـكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الـكثيرة ، فخلطوا الغث بالثمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب .

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبين ما فيها من الخطأ والصواب .

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التى أنشئت لوصل القديم بالجديد ، وحث الخلف ، على الانتفاع بميراث السلف ، وإنقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطىء من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفـكار ، وموتا لـما

يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن فى النقـــد الصحيح تهذيبا للمشاعر ، وتنويراً للعقول .

وإنما يخطىء من يبالغ فى حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؛ أو يبالغ فى بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيراً من الحسنات . والنقد الحق يرتـكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه إلى التوفيق بين الآراء المختلفـة ، فيجعل من الزوايا المتعددة التى ننظر منها إلى الحقائق شـكلا واحداً منسجم الترتيب ننظر من نواحيه إلى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولـكنهم أعداء لمنازع التوفيق .

***

وأنت يا أخى درست مؤلفات الغزالى ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام ، حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطىء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد . بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا إليك قارس اللوم ، ومر التأنيب .

كانت رسالتك مثاراً للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لن نغضب لذلك . لأنا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك إلا أن تـكون خادما للحقيقة ولو شق إليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولـكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع إلى الحق فضيلة ، والتمادى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق إلا الضلال .

***

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطاً بعيداً فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وإن كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطليق ، وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن إليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير . وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها فى هذا المدى خطوات . وإن كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الإنصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فإنا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعاً من المسرفين .

وإذا كان لى أن أنصحك — ومن الواجب أن أنصحك — فانى أدعوك إلى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحداً من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعاً طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال .

لقد فات كثيراً من عشاق الجديد أن يضموا إليهم أنصار القديم بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتى هى أحسن ، لتسيروا أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد .

انى أخشى عليك كثيراً أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟

ولكن إياك أن تجزع ، وقد بدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله .

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام .

منصور فهمى

المؤلف : أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرى لاتقدر على فصمها الليالى . ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين وإلى الشيخ سيد المرصفى . فإذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات — لا قدر الله ولا سمح — فإنى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل .

اللهم إن كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وإن كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب علىّ فانك وحدك التواب الغفور .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد .

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) أقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب .

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعاً من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزناً لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛ وإنما يحزننى مايلاقى أصدقائى من العنت فى دفع مايفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون .

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف مالاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد إخوانه بقوله : « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفسك ،

لا تضيق به صدرك وقل من غربك قليلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى إفحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس، لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس أو ما سمعت قوله تعالى : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »[١] . وقوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »[٢] . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »[٣] .

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الإسلام . ونحن لا نريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقوّل المفترين ، وتزيد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » ؟

محمد زكى عبد السلام مبارك

(١) كبر : شق — النفق : سرب فى الأرض .
(٢) يعرجون : يصعدون . سكرت : حبست عن النظر .
(٣) قبلا : عياناً ومقابلة ، وأخطأ النسفى حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل .

الباب الأول

فى

العصر الذى عاش فيه الغزالى

تمهيـــد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذى عاش فيه الغزالى ؛ وليس ذلك لأن الغزالى صورة لعصره . بل ليعرف القارىء إلى أى حد تأثر الغزالى بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والـكتاب ، والشعراء ؛ وإنما ندرس شخصية الـكاتب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف . ثم نبحث عن المؤثرات التى كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقا لـما أحاط بالشخص من الظروف .

ولتوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الـكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التى كونت وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس أبى نواس ؛ ولـكن الدكتور طه لاينكر أن عصر أبى العلاء أنتج رجالا يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لايراه ؛ وأن عصر أبى نواس أخرج رجالا لايسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولا ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والـكتاب، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ماتألفت منه هذه الآثار فقد تـكون نتيجة لمطالعات لاصلة بينها وبين العصر الذى ظهرت فيه . كما يمـكن أن تـكون نتيجة له بالذات .

وإلا فحدثنى كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكى صورة لهذا العصر ، وهو يكوّن من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؟ وأمثال الشيخ السبكى عديدون ،

ولكني خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوماً فى زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤاثرت التى كونت عقلية هذا الرجل الذى يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

إنه لا شك فى تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغى أن نعرف أن من الناس من يعيش فى قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ فنى مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما فى مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفيني القارىء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالى وأكتنى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ، ليتمثل القارىء زمان الغزالى ومكانه وليعرف ماتمس الحاجة إليه مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فإن الغرض من هذا الكتاب إنما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالى فى الأخلاق .

الفصل الأول

الدولة السلجوقية

— ١ —

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية إلى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الإسلامية ، فانه لا حاجة إلى ذلك الآن ، وإنما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التي تفيأ الغزالى ظلها الظليل .

ذكر الأستاذ محمد الخضرى (بك) فى محاضراته فى الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمس بيوت : الأول السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثانى سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سلاجقة سورية . والخامس سلاجقة الروم .

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغرل (بك) وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٩ م إلى سنة ٥٢٢ هـ ـ ١١٢٧ م . وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت (بك) بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ ـ ١٠٤١ م إلى ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٨ م . وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان .

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ ـ ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ ـ ١١٩٤ م على أيدى شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة .

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م . وانتهت سنة ٥١١ هـ ـ

١١١٧ م . على أيدى الدولتين : النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصرا ، فكانوا من بيت قطلمش بن إسرائيل ابن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٧ م . وانتهت سنة ٧٠٠ هـ ـ ١٣٠٠ م . فهى أطول دول السلاجقة حياة ، إذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول .

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ ، أى ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهده العصر البويهى ، وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة

— ٢ —

عاصر الغزالى أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبى شجاع ألب أرسلان ، وجلال الدين أبى الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبى المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه .

وقد ولد الغزالى فى آخر عهد طغرل (بك) ، الذى ملك بغداد ، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذى تطلع إلى أن يتزوج من البيت العباسى . وهو أمر لم تجر به العادة . فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها فى حديث طويل .

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفى عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالى ، وسنعود اليها بعد قليل . وأما محمد ابن ملكشاه فهو الذى وضع له الغزالى كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك .

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد .

الفصل الثانى

الباطنية

فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التى أجملنا حالها فى الفصل الماضى ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهمون ببسط سلطانهم على أقطار المشرق ، بعناية الدعاة .

والذى يعنينى الآن هو إجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالى شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وإن لم تصلنا كتبه فى هذا الباب ، وسترى حين نتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم بالميل إليهم ، إذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول .

وأحب أن يعرف القارىء أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملؤن تلك الرءوس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ، والأضاليل ؛ وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الإسلام ! !

ولولا خوف الإطالة لشرحت للقارىء طرائق الباطنية فى نشر الدعوة Propagande فقد كانوا أمهر من الإنجليز ، والفرنسيين ، والأمريكان فى العصر الحديث ، وكانت جنايتهم شديدة الخطر فى مسخ عقول الأمم الإسلامية المسكينة ،

التى قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدى طلاب الملك من العباسيين والفاطميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاة الباطنية لمكرهم يتنقلون بالطالب من حال إلى حال ، فيفهمونه أولا أن الآفة التى نزلت بالأمة فشتتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب إلا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن الشريعة ، لأن دين محمد — فيما يزعمون — ليس هو ما تعرفه العامة ، بل هو علم خفى غامض ، ستره الله فى حجبه ، وعظمه عن ابتذال أسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه ، إلا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب فى مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم إلى الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس .

وأشهر دعاة الباطنية فى الشرق هو الحسن بن الصباح . الذى رحل إلى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد إلى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (ألموت) وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه فى الأقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة حروب .

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع إلى كتب التاريخ ، ثم ليرجع إلى تفصيل آرائهم إن شاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، فإن فى آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم فى عدة مواطن من كتب الغزالى ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة ، بين الإسلام والزندقة » فليعد إليه من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

— ١ —

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، فى قونية واقصرا ، وما إليهما من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الإفرنج إلى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وإنها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضيعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجأ قيصر الروم إلى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرآها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم إلى الدفاع عن النصرانية ، وإخراج بيت المقدس من أيدى المسلمين .

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، وإخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدأً من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين إلى ميدان القتال .

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدى الشعوب القوية ، وغل فى أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودنياه ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه ديناً حتى يحيق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، فى حين أن المسلمين كانوا يبكون فى مساجدهم يوم الجمعة ليوقظوا الهمم الخوامد ، والنفوس الرواكد ، فما استمع لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت: طلاب الملك ، وعشاق الحياة ! وإلا فحدثنى لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يغضبوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب . فإن أدى الدين إلى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما إن نزل بهم إلى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأحبار والرهبان ، وأمثال الأحبار والرهبان . ومن كان فى ريب مما نقول فليسأل التاريخ .

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات سميت بالأمارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف منها حملة الصليب .

وأول ما أسس من هذه الأمارات أمارة الرها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ ـ ١٠٩٧ م . ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ ـ ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا بيت المقدس . وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد أن سجل التاريخ من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحياء .

— ٢ —

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، فى إعداد الخطب وتحبير الرسائل ، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الغزالى (حجة الاسلام) غارقا فى خلوته ، منكبا على أوراده . لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد ! ! ويكفى أن نذكر أن الإفرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ،

ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفتده أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عدداً لا يحصيه إلا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته .

وما ذكرنا هذه المأساة إلا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالى ، ولنقنعه بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فإن كتب الغزالى لا تنبئنا بشيء عن تلك الأزمة التى عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية .

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل عن الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود حالة لا تقضى فيها الأخلاق .

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة إلى «نظام الملك» : وزير السلطان ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه . مكث فى الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها فى سلطنة ألب أرسلان . وعشرون فى سلطنة ملكشاه . وقد مات «نظام الملك» قتيلا ، ولكن اختلف المؤرخون فى سبب قتله : فنهم من يروى أنه لما أسرف فى النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، وشى به بعضهم إلى السلطان ملكشاه ، وقالوا (إن الأموال التى ينفقها نظام الملك فى ذلك تقيم جيشاً يركز رايته فى سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه فى ذلك فأجابه « يا بنى : أنا شيخ أعجمى ، لو نودى علىّ فى من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ! وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماها إلى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى ، والخمور ، والملاهى ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلا قامت

جيوش الليل على أقدامهم ، صفوفاً بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جورجى زيدان فى كتاب « التمدن الإسلامى » عن كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن « نظام الملك » توفى مقتولا سنة ٤٨٥ هـ .

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن « نظام الملك » ولى حفيده عثمان بن جمال الملك أعمال مرو ، وأرسل السلطان إليها شحنة[١] اسمه قودن ، وهو من خواصه ، فنازع عثمان فى شىء . فحملت عثمان حداثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ؛ فقصد السلطان ملكشاه مستغيثاً شاكياً فاغتاظ السلطان ملكشاه لاستبداد « نظام الملك » وبنيه ، وخروجهم على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها : (إن كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وإن كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد جازوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا . . . الخ) .

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : إذا كنت لم تعلم بعد أنى شريكك فى الملك ، فاعلم ! فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأيى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فقمت بتدبير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت فى ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور إليك ، وأطاعك القاصى والدانى ، أقبلت تنتحل لى الذنوب ، وتسمع فىّ الوشايات . قولوا للسلطان : إن دواتى مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك .

---

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة .

والأقرب إلى الصواب ما ذكره الأستاذ محمد(بك) الخضرى فى محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره إلى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسن بن الصباح ، وأخذ عليه الطرق .

وهذا لا ينافى ما نقل من النفرة التى وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فإن حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص فى تلك الأيام المظلمة ، التى طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت ! !

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكرى :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً   يتيمةً صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها   فردها غيرةً منه إلى الصدف

***

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر فى أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارسه فى أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الأوربيون والأمريكيون فى هذا الجيل : ولا عيب فى ذلك : فالعلم من أمضى الأسلحة فى استلال السخائم من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من أن تغفل مثل هذا السلاح ! !

وكذلك عنى نظام الملك بإنشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضله ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته فى الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان إذا دخل عليه الأئمة الأكابر لا يقوم لهم ، ويجلس فى مسنده ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل إليه يقوم له ، ويجلسه فى مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه سئل عن ذلك فقال : إن أولئك إذا دخلوا يثنون علىّ بما ليس فىّ ، فيزيدنى كلامهم عجباً وتيهاً وهذا يذكرنى بعيوب نفسى فأرجع عن كثير مما أنا فيه ! !

وإذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن علماء ذلك العصر كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى إذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس .

ومهما تكن نيات نظام الملك — والله عليم بذات الصدور — فإنه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمساكن ، والحمامات ، وظلت مدارسه بأوقافها زمناً ليس بالقليل ، وتخرّج منها كثير من العلماء والأدباء .

***

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالى ، فقد تلقى العلم فى مدرسة نيسابور . وتولى التدريس فى مدرسة بغداد ، وسنعود إلى تفصيل ذلك فى غير هذا الباب .

الفصل الخامس

روح ذلك العصر

— ١ —

من الصعب تحديد الروح السائد فى عصر من العصور ، وإنما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذى يدرسه .

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هى الصفة الغالبة فى ذلك العصر ، مع شىء من المكر فى الأمراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ماذكره الغزالى في

كتابه « المنقذ من الضلال » من أن الناس كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد : إنها عين أصابت الإسلام ! وما نقل السبكى من أن أحد معاصريه سمعه يقول « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن تردعلى تعليقتي فقط ، فما هى بشيء تنتفعون به ، فقال لى : وماهى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة . قال الغزالى : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ماعلقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » .

والسذاجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لاتبقى إلى حفظها حاجة ، آفة عظيمة فى تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الرأى ، وصواب الحكم .

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك فى وصيته[1] التى تركها لخلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الإمام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان ، مبجلا مهيبا ، وقد نيف على الخمس والثمانين . وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق إليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس إلى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ ذلك على الأستاذ النابغة الجليل . وهنالك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرى الصداقة ولحظنى بعين عنايته ، وأنزلته من نفسى أخص منزلة ، وألطفها ، ولبثنا على ذلك سنين عدة . وكنت أول مانزلت به ، وجلست فى حلقته ، لقيت تلميذين فى مثل سنى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الإمام الموفق ، وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين فى الفطنة والذكاء ، فأنس كل منا بصاحبيه ، وتمت بيننا نحن الثلاثة أحسن

(١) مقدمة النباهى لرباعيات عمر الخيام .

صحبة وأمتنها . فكان إذا قام الإمام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذا كرنا ما تلقيناه عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالى نيسابور ، أما الحسن بن الصباح فكان أبوه ناسكاورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صح فى أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الإمام الموفق إلامصيباً عزاً وإقبالا وثروة وجاهاً ، فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعاً فإنه لابد أن يقع لواحد منا ، فماذا يكون حق الإثنين الخائبين على ذلك الفائز الظافر ؟ قلنا له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلنتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشىء دون أخويه . فأجبنا : ليكن ذلك كما قلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولا فى فضاء الله ، إلى غزنة ، ثم إلى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة فى سلطنة السلطان ألب أرسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحباى . فأتيانى يطلبان إنجاز وعدى القديم وإشراكهما فيما انحاز لى من النعمة والثراء » .

والذى يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد فى عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الإمام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق إليه العز والجاه » وتلك خرافة لايسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الأحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان الطلبة يتغنون بها فى حلقات الدروس .

وقد رأينا فى الفصل السالف كيف منّ «نظام الملك» على ملكشاه بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه لايصح الدفاع عن العلم بإظهار الحاجة الى دعوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء . وإنما تحرس الأمم بالعلم فى إقامة ما اعوج من الأخلاق ، وإيقاظ ما خمد من النفوس ، وإحياء ما اندرس من آثار العقول .

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالمنامات والأحلام ، وهى شارة الارتياب فى الواقع ، والإيمان بالخيال .

— ٢ —

أما ما كان فى ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرة مبعثرة فى الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالى شهيدة على ذلك ، فكثيراً ماتراه يشن الغارة على العلماء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم فى الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !! .

ويمكن الجزم بأن الغزالى يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الأتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى ، وهم فى أنفسهم أنصار غى وضلال وإنما قلنا أنه يمثل عصره ، لأنه يتكلم فى هذه الشئون بحماسة عظيمة ، ليست صدى لمطالعاته فى المؤلفات القديمة ، وإنما هى أثر لغضبته من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة ، ولكن المعرى كان غير مسموع الكلمة فى نقدهم ، أما الغزالى فكانت كلمته فى ذمهم شديدة الأثر ، لأنه صوفى ،ولأن تلامذته كانوا عوناً له على نشر مايريد .

وإليك أنموذجاً من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات ، والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل » . ص ٤٠٥ ج ٣ إحياء .

على أن الغزالى كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف كان ذلك فى غير هذا الباب .

أما مكر الأمراء والملوك فقد كاد ينحصر فى ختل العامة وجرهم إلى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك ، فى دعوة صريحة

بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وقوداً لنار تلك الفتن فى مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين . ولعن الله الساسة أصحاب الأغراض .

الفصل السادس

البلدان التى عرفها الغزالى

نريد أن نذكر فى هذا الفصل بعض البلدان التى عرفها الغزالى ، لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة فى كتابه ذكرى أبى العلاء ، فليرجع إليه من أراد .

ونعتمد فى وصف تلك البلدان على معجم ياقوت[1] لقرب مؤلفه من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس إذ ذاك .

طوس

مدينة بخراسان ، تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران (وهى التى دفن بها الغزالى) وللأخرى نوقان ، ولها أكثر من ألف قرية ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا وبها أيضاً قبر هرون الرشيد . وقال مسعر بن المهلهل : وطوس أربع مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة ، وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل فى مثله ، وفى بعض بساتينها قبر على بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل محكم البنيان ، لم أر مثله علو جدران ، وإحكام بنيان ، وفى داخله مقاصير تحار فى حسنها الأوهام ، وآزاج ،[2] وأروقة ، وخزائن وحجر للخلوة ، وسألت عن أمره

---

(١) توفى ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان فى سنة ٦٢٦ هـ . وكتابه من أجود ما عرف العرب فى القواميس الجغرافية .

(٢) مفردها أزج بفتحتين ضرب من الأبنية .

فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة ، وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار إلى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره فى مكان يسكن إليه ، ويسير متخففاً ، فبنى هذا القصر وأجرى له نهراً عظيما آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ، وذخائره ، وحرمه ، ومضى إلى الصين فبلغ ما أراد ، وانصرف فحمل بعض ما كان جعله فى القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على هذه الحال تجتاز به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئاً ، حتى استبان ذلك واستخرجه أسعد بن أبى يعفر صاحب كحلان[1] لأن الصفة وقعت له .

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد الغزالى ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » . قال ياقوت : وأهل خراسان يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدرى لم ذلك ؟ .

وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقد خرب الطوسىُّ بلدة غزنة فصب عليه الله مقلوب بلدته

هو الثور قرن الثور فى حِرِ أمهِ ومقلوب اسم الثور فى جوف لحيته[2]

وقال دعبل الخزاعى من قصيدة يمدح بها على بن أبى طالب رضى الله عنه ويذكر قبرى على بن موسى والرشيد بطوس :

اربع بطوس على قبر الزكى به إن كنت تربع من دين على وَطَرِ

قبران فى طوس : خير الناس كلهم وقبر شرهم : هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكىّ ولا على الزكى بقرب الرجس من ضرر

هيهات كل امرىء رهن بما كسبت يداه حقاً . فخذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هى موطن الغزالى . ومولده ، وبها قبره ، إلا إن صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس . وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا أنه كان لطوس أكثر من ألف قرية . وإذاً يكون الغزالى بفتح

---

(١) من مخاليف اليمن (٢) مقلوب طوس . سوط ، ومقلوب ثور . روث !

الزاى لا بتشديدها ، على أن فى طبقات السبكى ص ٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالى ، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسماً لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة غزالة .

نيسابور

قال ياقوت : هى مدينة عظيمة . ذات فضائل جسيمة . معدن الفضلاء ومنبع العلماء . لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، ثم قال : ومن الرى إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها إلى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس إلى مرو الشاهجان [1] ثلاثون فرسخاً . ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُنِيّ تجرى تحت الأرض ينزل إليها فى سراديب مهيأة لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس فى الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منّا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة أرطال بالعراق وهى بيضاء صادقة البياض كأنها الطلع ، ثم قال : وكان المسلمون فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه والأمير عبد الله بن كريز فى سنة ٣١ صلحا . وبنى بها جامعاً ، وقيل إنها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على

---

(١) مرو الشاهجان ، هى قصبة خراسان وكان بها لعهد ياقوت عشرة خزائن موقوفة تحوى نفائس الكتب . منها خزانتان فى الجامع إحداهما يقال لها العزيزية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدرى إلى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى محمد بن منصور فى مدرسته ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٩٤ هـ وكان حنفى المذهب ، وخزانة نظام الملك فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزائن الخاتونية فى مدرستها ، والضميرية فى خانقاه هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رهن) ويذكر أن أكثر فوائد معجمه من تلك الخزائن .
وفى مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب :

أقرية الوادى التى خان الفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فاننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب

ويقول أبو الحسين مسعود ابن الحسن الدمشقى :

أخلاى ان أصبحتم فى دياركم ... فانى بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقاً ثم أحيا تذكراً ... وبين التراقى والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة ... ولكن بقاه فى الحياة عجيب

يد الأحنف بن قيس ، وإنما انتقضت فى أيام عثمان. فأرسل إليها عبدالله بن عامر ففتحها ثانية .

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم الحافظ الإمام أبو على الحسين بن على النيسابورى ، الذى رحل فى طلب العلم والحديث . وعقد له مجلس الإملاء بنيسابورى سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفى سنة ٣٤٩ .

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور . فمن ذلك قول أبى الحسن الاسترابادى :

لا قدس الله نيسابور من بلد | سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعا وبُرُّهم | والفضل ماشئت من خير وأرزاق
والخير فى معدن الغرثى وإن برقت | أنواره فى المعانى غير براق

وقال المرادى يذم أهلها :

لاتنزلن بنيسابور مغترباً | إلا وحبلك موصول بسلطان
أولا فلا أدب يجدى ،ولا حسب | يغنى ، ولا حرمة ترعى لإنسان

وقال معن بن زائدة الشيبانى : يشكو ليله بنيسابور

تطى بنيسابور ليلى وربما | يرى بجنوب الرى وهو قصير
ليالىَ إذ كل الأحبة حاضرٌ | وما كحضور مَن تحب سرور
فأصبحت امّا من أحب فنازح | وأما الألى أقليهمُ فحضور
أراعى نجوم الليل حتى كأننى | بأيدى عداةٍ سائرين أسير
لعل الذى لايجمع الشمل غيره | يدير رحى جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلقى أحبة | ويورق غصن للشباب نضير

وفى نيسابور تلقى الغزالى عن إمام الحرمين الفقه والمنطق والأصول ، حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها إلى طوس ، حيث اتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من تلك ، قيل : إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين . ولها تاريخ ألفه حمزة يزيد بن السهمي . قال الاصطخرى : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً و أكثر مروءةً ويساراً من كبرائهم ، وهى قطعتان إحداها المدينة والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها ثعابين تهول الناظر ، ولكن لاضرر لها .

وقد فتحت فى سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، وخرج منها عدد عظيم من العلماء ، كانت تشد إليهم الرحال .

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول ابن خزيم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها ... حنيف ولم يُلمِمْ بها ساعة غِرُّ
ولم يشهد القَسّ المهيمن نارها ... طروقا ولم يحضر على طبخها حَبْرُ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً ... وقد لاحت الشعرى وقد طلع النسر
فقلت اصطحبها أو لغيرى فاهدها ... فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها فى العصور التى مضت ... فكيف التصابى بعد ما كمل العمر
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتى حياء ولا سِترُ
فدعه ولا تنفس عليه الذى أتى ... وإن جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فهو ناقص المروءة . . . وذكر أن مسلم بن الوليد صريع الغوانى مرض مرض الموت بجرجان ، وأنه رأى نخلة لم يكن فى جرجان غيرها ، فقال :

ألا يا نخلة بالسّفح من أكناف جرجان
ألا إنى وإياك بجرجان غريبان

وإلى جرجان رحل الغزالى ليتلقى العلم عن أبى نصر الإسماعيلى ، وعلق عنه التعليقة التى حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع إلى طوس .

دمشق

لو أنك رجعت إلى ياقوت ، وقرأت فى معجمه أخبار هذه المدينة ، لرأيت كيف يضل العرب فى بيداء الخيال ، ولعرفت أن لهم حظاً من أساطير الأولين . وهذا الضلال فى ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا منزلتها المقدسة ، التى احتلت قبلا رءوس المسلمين : فهم تارة يذكرون أن بانيها هو دماشق بن قانى بن مالك بن أرفخشد ابن سام بن نوح عليه السلام ، وتارة أخرى يقولون إنها بنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذى يقولون أنه سبعة آلاف سنة ، وحيناً يزعمون أن إبراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين ، وحيناً آخر يتوهمون أن العازر غلام إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى دمشق .

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السير إن آدم عليه السلام كان ينزل فى موضع يعرف الآن ببيت أنات ، وحواء فى بيت لهيا ، وهابيل فى مُقرى وكان صاحب غنم ، وقابيل فى قنينة وكان صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق .

ووجه الغرابة هو فى إخلاده إلى من يسميهم « أهل الثقة » وأين وصل أهل الثقة إلى أخبار آدم ونوح ، يا أيها المؤرخ الخطير ؟ ! .

وأحب أن أنبه القارىء إلى قيمة الإغراق والغلو فى وصف البلاد ، فإنه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وإن دل على سذاجة الواصفين ، وأربعة أخماس الناس يشتاقون إلى رؤية دمشق حين يقرءون أنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاهم ، وأنه كان بها مسجد إبراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وأنه لم توصف الجنة بشىء إلا وفيها مثله ! ! .

وكانوا يقولون : (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الإسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد ابن عبد الملك بن مروان لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم إنا نريد أن نزيد فى مسجدنا كنيستكم ، يعنى كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وإن شئتم ضاعفنا لكم الثمن ، فأبوا ، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا إنا نجد فى كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق ، فقال لهم الوليد: فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد فى المسجد ما أراد . قالوا ومكث فى بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل !! .
وقال موسى بن حماد البربرى : رأيت فى مسجد دمشق كتابة بالذهب فى الزجاج محفوراً فيها سورة (ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر) إلى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة فى القاف ، التى فى قوله تعالى : حتى زرتم المقابر فسألت عن ذلك فقيل لى : إنه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها فى قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت فى قاف المقابر من ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجاحظ فى كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال: ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم . ويقول ياقوت: ومن عجائبه أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يراه فى سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها . ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع فيه حريق فى سنة ١٦١ فأذهب بعض حسنه .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبى المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلى بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفنى إلى بَرَدَى والنيربين حنين
وقد كان شكى فى الفراق يروعنى فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم ولكنْ ما يقضى فسوف يكون

وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها   فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها   خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكهن أبهى المناظر   فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً   ومن أترجة لم تعد ثديا

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها   وقد وفى لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد   مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا   ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر إلا وا كفاً خضلا   أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته   أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقد أغرب الأقدمون فى وصف دمشق ، ومسجد دمشق والذى ذكرته من ذلك كاف لما أنا بصدده من صلة الغزالى بهذه المدينة ، فقد دخلها فى سنة ٤٨٩ وأقام بها أياماً قليلة ، ثم عاد إليها بعد ذلك . واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع قال السبكى واتفق أن جلس يوماً فى صحن الجامع الأموى وجماعة من المفتين يتمشون فى الصحن واذا بقروى أتاهم مستفتيا ، ولم يردوا عليه جوابا . والغزالى يتأمل . فلما رأى الغزالى أنه ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده . دعاه وأجابه . فأخذ القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابونى . وهذا فقير عامى كيف يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه فلما فرغ من كلامه معه . دعوا القروى وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ وكان الغزالى إذ ذاك فى زى فقير مجهول — فشرح لهم الحال فجاءوا إليه وتعرفوا به : وسألوه أن يعقد لهم مجلساً ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام . وحسب القارىء هذا المقدار .

بيت المقدس

من المواطن التى قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان بن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلنى أعطك : قال يارب ، أسألك أن تغفر لى ذنبى . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيما أن تشفيه . قال ولك ذلك ! ! ويروون عن أبى ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فبيناهم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مريم عليه السلام . فاذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها « عرصة القيامة ، ومنها النشر ، وإليها الحشر » ويزعمون أن سليمان كان اتخذ فى بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التى فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة ! ! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فإذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله فى الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود ! . وكان أيضاً مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب فى زاوية من زواياه عصا أبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات إن استقصيتها أملت القارىء) فياليت شعرى ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

إنه لا شك فى أن كل ماوصف به بيت المقدس ليس إلاصورة لمبلغ المتقدمين من فهم حقائق الأشياء ، فليست زيارته بمخرجة أحداً من ذنوبه ، ولا براحمة فقيراً من فقره ، ولا بمنقذة سقيما من سقمه ، كما يزعمون أن الله قال ذلك ! وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد الحرام وبناء بيت المقدس بعده بأربعين سنة ،

كما يتوهمون أن النبي قال ذلك : ولن يأكل المؤمنون أوتار قسيهم من الجوع . حين يحاصرهم الدجال في بيت المقدس ، ولن يعود عيسى إلى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ، وهب ذلك يكون ، فمن يدرينا أن المؤمنين لن يملكوا يومئذ غير القسى والنبال ؟ ولا تنس السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليدة الخيال ! ! وما عسى أن يكون ذلك البيت الذى كان إذا دخله الفاجر ظهر خياله أسود ، وإذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ، ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي ، أو قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون من أن أول شيء حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفخ في الصور يوم القيامة ، وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالي يتمدح في كتابه « المنقذ من الضلال » بأنه كان يرحل إلى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ويتعبد فيها طول النهار ! ! وأنه انكشفت له في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها كما قال .

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها الأحاديث ، أثرت تأثيراً بيناً في حياة الغزالي العقلية ، وطبعت نظره إلى العالم بطابع خاص . ولولا خوف الإطالة لوصفنا ما رآه في سياحاته من المشاهد والبقاع ، ولكن الرغبة في الإيجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من البلاد .

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذى يهمنا من أعيان العصر الذى عاش فيه الغزالى إنما هو ذكر أساتذته . لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر لأن فى ذلك تصويراً لحركة العقول إذ ذاك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض إنما هو أن نقرب للقارىء زمان الغزالى ومكانه ، نوعاً من التقريب . فأما تحديد اتجاهات الفكر فى تلك الآونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالى فى الأخلاق .

الشهرستانى

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم فى نيسابور على أبى الحسن على بن أحمد المداينى ، وقد ذكر السبكى بقية أساتذته فى ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تآليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال فى مقدمته : « وبعد فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوى جميع ماتدين به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصاراً لمن اعتبر » وقيمة هذا الكتاب ترجع إلى جمعه أكثر الآراء التى عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الإيجاز والغموض فى أكثر المواطن التى تحتاج إلى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته فى نصرة مذاهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل .

الأبيوردى

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى ، تفقه على إمام الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة — وكذلك كان العلماء دائماً فى حاجة إلى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما الدين خرافة يسيغها العوام وينكرها الخواص — وكان الأبيوردى يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرت له هذه النزعة بلايا كثيرة ، اضطر بسببها إلى مفارقة بغداد، فرجع إلى همذان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفى مسموماً بأصبهان فى ربيع الأول سنة ٥٠٧ .

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله فى الصبر على أحداث الدهر آيات بينات ، ويندر أن نجد أديباً لا يحفظ قوله :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى　　أعز وأحداث الزمان تهون
فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه　　وبت أريه الصبر كيف يكون

ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوق فيها إلى أحبابه ، وقد خلاهم ببغداد .

ألا ليت شعرى هل أرانى بغيضة　　أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبه　　نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت　　على صفحتيه نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وترابها　　تضوع مسكا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهية　　وليلى قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائى ببغداد هل بكم　　سلو فعندى رنة وعويل
ترنحنى ذكراكم فكأنما　　تميل بى الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسى بقربكم　　فليلى على نأى المزار طويل

الأرجانى

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجانى ، ولد حوالى سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر . وهومن فحول الشعراء وله هذه الأبيات :

سفرت كى تزود الحب منهــا نظرة حين آذنت بالتنائى
وأرت أنها من الوجــد مثلى ولها للفراق مثــل بكائى
فتباكت ودمعها كسقيط الطـــل فى الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين فى حمــرة اللو ن سواءاً وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعى يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خــدها باحمرار كاختضاب الزجاج بالصهباء

وفى مقدور القارىء أن يرجع إلى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من نبغوا فى القرن الخامس ، فإن الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب السبل إلى فهم روح ذلك العصر ، أما نحن فلا نريد أن نطيل .

الباب الثانى

فى حياة الغزالى

تمهيد

نريد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالى ، لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته فى الأخلاق .

ونحب أن ننبه القارىء إلى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه « المنقذ من الضلال » فأما الكتب التى ترجمته فهى فى أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالى كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوره كرجل لا ينبغى لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وإنهم لواهمون .

ولم نستشر التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة وإخلاص عن تطور حالته العقلية ، وهى التى تهمنا فى هذا الباب .

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالى من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وإنه ليكفى أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد فى أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكى فى طبقات الشافعية « أنه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد فى الإحسان إليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ ، فإذا طاب وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤ .

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين ، واعظين ، فإن شئت قلت إنها دعوة أجيبت ، وإن شئت قلت إن حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل إلى ولديه بطريق الوراثة .

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية فى عنفوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم ، وأنه خرج إلى العراق ، ومالت إليه القلوب ، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثا وثمانين . وذكر ابن خلكان أنه كان صاحب كرامات وأشارات ، وأنه كان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه . وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً بين يديه (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فقال شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله ياعبادى ثم أنشد :

وهان علىّ اللوم فى جنب حبها   وقول الأعادى إنه لخليع
أصم إذا نوديت باسمى وإننى   إذا قيل لى ياعبدها لسميع

ويروون أنه حكى يوماً فى مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولا بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقاً له ، فجاءه يوما بكرة وقال له : انظر إلى وجهى فأنا اليوم أحسن من كل يوم . فقال وكيف ذلك ؟ قال : نظرت فى المرآة فاستحسنت وجهى ، فأردت أن تنظر إلى ، فقال : بعد أن نظرت إلى وجهك قبلى لا تصلح لى . وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء .

ومن كلامه : « من كان فى الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان ينصح أخاه أبا حامد الغزالى بقوله :

إذا صحبت الملوك فالبس　　من التوقّى أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى　　واخرج إذا ما خرجت أخرس

وكان أساتذتنا فى الأزهر يقصون علينا أحسن القصص فى تأثير هذا الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الأمثال ، وقد حاولت أن أجد سنداً لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن أكثر ما عرف عنه إنما هو من صنع الخيال .

ولو أننا أضفنا إلى ما سلف أن الغزالى كان صغيراً حين مات أبوه ، وأن الذى كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده ، لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية ، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه فى الأخلاق .

الفصل الثانى

مولده ونشأته

ولد الغزالى فى طوس سنة ٤٥٠ ﻫ وفيها تلقى ما تفقه به فى صباه على أحمد بن محمد الراذكانى ؛ ثم سافر إلى جرجان حيث تلقى طرفاً من العلم عن الإمام أبى نصر الإسماعيلى وعلق عنه التعليقة — كما كانوا يقولون — ثم رجع إلى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه فى جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس إمام الحرمين فى المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه إلى أن توفى فى سنة ٤٧٨ﻫ . ثم خرج إلى العسكر وهى محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك — وكان إذ ذاك فى الثامنة والعشرين من عمره — وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ، فوجدت الفرصة لينشر الغزالى أثمن ما فى خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤ ﻫ .

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية إلى أن نيف على الخمسين « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبى وديدنى ،

من أول أمرى . وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانحسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا » .

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون فى الدفاع عنها ، ويجدون فى إذاعتها بين الناس والثانى أن الغزالى لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأى واحد : يعيشون عليه ، ويموتون عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بأن يعلم حقيقة كل نحلة ، وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل عقيدة .

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان النصارى ينشأون على التنصر ، وصبيان اليهود على التهود ، وأطفال المسلمين على الإسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثاً له على أن يشك فى دينه حتى يتبين حقيقته — وإن لم يحدثنا عن ذلك — لأنه ماالدليل على أن النصرانية خير من اليهودية ، أو أن الإسلام خير من النصرانية ، أو أن اليهودية خير من الإسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود : كل على ما هو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات ؟

وهنا يصرح الغزالى بأنه انتهى إلى أنه لا قيمة للتقليد ، لأنه موجود فى كل أمة وفى كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين الذى لو تحدى لإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك فيه شكا ، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه فى معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة .

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالى لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التى أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولا بأن اليقين ينحصر فى الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلا للثقة به ، لأنك تنظر إلى الطفل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالى أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التى هى من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالا . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالى فى مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التى هى بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة إليها كنسبة النوم إلى اليقظة ، ثم يتردد فى تعيين هذه الحالة فلا يدرى أهى الموت تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى : (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هى حالة الصوفية : إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى هى لهم أنهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات ؟ ؟

ثم يذكر الغزالى أنه عاد الى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قذفه الله فى صدره كما قال .

ونحن لا ننازع الغزالى فى أن لله نوراً يقذفه فى صدور عباده ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ماهى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذى يعنينا قبل كل شىء : هو أن نسجل أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس فى مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما ستراه .

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نبين وجهة نظره فى أحكامه الأخلاقية ، ينبغى أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عنى بالتأليف فى الأخلاق . فإن معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم ما ينبغى تقديمه قبل الشروع فى درس ما ترك المؤلفون .

والسند الصحيح لحياة الغزالى هو كتابه (المنقذ من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته فى عزلته التى دامت نحو عشر سنين ، والتى وضع فى أثنائها كتاب الإحياء وهو أهم ما كتب فى الأخلاق .

قال بعد كلام طويل : « ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علىّ من العمل فابتدأت بتحصيل

علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لى أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه شيء من السكر ، والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا :

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها ، فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول الثلاث من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى ، وأحسنها التدريس والتعليم : فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشرفت على النار ، إن لم أشتغل

بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا القليل . وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع ؟ ؟ ! ! .

« فبعدذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما لا تتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر . أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفين إلى ، فكان لا ينطاق لسانى بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إلى العلاج » .

وإنما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه « المنقذ من الضلال » لأن الغزالى عندى صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه فى ذلك الحين من قوله بعد ما سلف (ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لاحيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل والولد والأصحاب) (! ؟)

ويجب أن تنتبه لهذه الكلمة ، فهى كافية فى تصوير نفسه ، وينبغى أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين ، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو فى هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ، ولا كيف عاد إلى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذى تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طوال النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل إلى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ! !

على أنه بعد أن عاد إلى أهله (آثر العزلة أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر) كما قال .

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمنى أن أثبت أنه كتب ما كتب فى الأخلاق وهو على هذه الحال .

ويتلخص ما سلف فى ثلاثة أمور :

الأول — ماورثه عن أبيه من نزعته الصوفية .

الثانى — ما استفاده من وصيِّه تأييداً لتلك النزعة .

الثالث — عشر سنين قضاها فى العزلة ، لها مالها من الأثر . فى تكوين نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير فى كتبه .

إذن ليعلم القارىء منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه للأخلاق إنما هى نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا فى عدة مواطن من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

وفاته ورثاؤه

ترك الغزالى بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج فى سنة ٤٨٨ ﻫ بعد أن أناب أخاه عنه فى المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق فى سنة ٤٨٩ ﻫ ومكث فيها أياماً ، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به مدة ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف فى المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب إلى الإسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال إنه كان ينوى الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التجول فى الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة ؛ وحدث بكتاب الإحياء . ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام ، إلى أن توفى رحمه الله بطوس يوم الإثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ﻫ قال السبكى : ومشهده يزار بمقبرة الطابران .

قال الزبيدى : ووجدت فى كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزمورى ما نصه : ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة أن الإمام أبا حامد الغزالى لما حضرته الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين — كان يخدمه — أن يحفر قبره فى موضع بيته ، ويستوصى أهل القرى التى كانت قريبة إلى موضعه ذلك بحضور جنازته وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق ، يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة . فلما توفى فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم إلى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل

وأدرج فى أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفاً فى كسائه ، وفى جانبه علم أسود ، معمماً بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه ، إلى أن سمع بعضهم بالليل هاتفاً يقول لهم : إن ذلك الرجل الذى صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريف جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه . . . الخ » .

وهذه بالطبع خرافة لفقها المتصوفة بعد موت الغزالى ، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالى لم يمت إلا بعد أن اتفق العامة على صلاحه ، فقد رُمى بالزندقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة :

قل لإخوان رأونى ميتا ... فبكونى ورثونى حزنا
أعلى الغائب منا حزنكم ... أم على الحاضر معكم ههنا
أتخالونى بأنى ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصدر وهذا بدنى ... كان جسمى وقميصى زمنا

وهى طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية . وهى كذلك مما لفقه أصحابه بعد موته ، وما أكثر مازوِّر باسمه من الآثار ! !

ونقل ابن الجوزى فى « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد أخى الغزالى أنه قال : « لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى ، وقال علىّ بالكفن ، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ، ومات قبل الإسفار » .

وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد رثاه الأبيوردى بقوله :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى ... من كل حى عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمترى فى الله عبرته ... على أبى حامد لاحٍ يعنفه

تلك الرزية تستوهى قوى جلدى فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة فى الزهـــد منكرة وما له شبهة فى العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له فى الناس يخلفه

وقال فى رثائه القاضى عبد الملك المعافى :

بكيت بعينىْ ثاكل القلب واله فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعاً طالما قد حبسته وقلت لجفنى واله ثم واله

* * *

ونحن — فى جملة من انتفع بمؤلفات الغزالى — نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم.

الباب الثالث

فى المنابع التى استقى منها الغزالى

تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير فى الإنسان وما يتعلق به ، وأنه أول من قال : إعرف نفسك بنفسك . ولعلهم يريدون أنه أول من بحث فى الإنسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه فى الاجتماع ، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول .

أما البحث فى أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشىء منها نافع ، وشىء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال

فالأمة العربية التى ورث الغزالى وورث أساتذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر فى تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الأعراب فى وصية ابنه « المنية ولا الدنية » فيه ضرب من التهذيب الفردى ، وقول أحدهم فى حض الجيش على صدق اللقاء « الطعن فى النحور أكرم من الطعن فى الظهور » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطناً بعينه ، وإنما تتبع الرجل فى كل حال .

وكذلك قول أكثم بن صيفى : «العقل راقد ، والهوى يقظان . والشهوات مطلقة ، والحزم معقول . والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . نفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب . التقدم قبل التندم . ويل لعالم أمر من جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل ، فإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق » . فى هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية ، وهى جزء من علم الأخلاق .

ونجد شعراء الجاهلية والإسلام ضربوا بسهم فى معرفة الطبائع البشرية ، فنرى فى شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة ، وأثر الرفقة ، وأثر الجوار ، إلى غير ذلك من المعانى التى بسطها الفلاسفة حين تكلموا فى الأخلاق . فقول ذى الأصبع العدوانى :

كل امرىء صائر يوماً لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين

يماثل بعض المذاهب الأخلاقية .

وقول مسكين الدارمى :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أنى جماعها
لكل امرىء شعب من القلب فارغ ... وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يظلون شتى فى البلاد وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

يماثل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية .

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح فى الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للرذائل ، ووصف الفضائل والرذائل مما يعنى به علم الأخلاق .

فقول قعنب بن ضمرة :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلا علينا وجبناً عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التى يعنى بحربها علم الأخلاق .

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه ... ولست للعرض أن أودى بمحتال

هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الإنسانية .

ولا تنس الحكم التى فاضت بها النفوس العربية ، فأى كلام أكرم وأمتع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا
إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلا ماجداً حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن ؟

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجات القلوب ، وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التى شق فى حلها الحكماء ، ففيه أدب الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ، ومع أبنائه ، ومع إخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن . وفى الحديث توضيح وتتميم لما فى الكتاب العزيز ، ويكفى أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول .

وبعد ما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليلة ودمنة ، الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير ، ووضعت أبواب مطولة فى كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما إلى ذلك مما يهتم به الناس فى الحرب والسلم ، ويبنى عليه الاجتماع .

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التى أودعها الأدباء والمصلحون آراءهم فى تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع .

كل ما قدمته كان ينبوعا صافياً ينهل منه الغزالى ويعل وهو يضع مؤلفاته فى الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع حكما إلا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، إلى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنى رأيت فى ذلك منافاة للإيجاز ، وهو شرط هذا الكتاب .

على أن الغزالى مع ترسمه لما سبقه من الآثار الأدبية لم يخل من حرية الفكر ، والميل إلى التجديد ، فقد خرج على الأشعرى فى بعض آرائه ، وخالف الشافعية فى بعض ما يقولون به ، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم — حين يخالفهم — إلا برفق واحتياط ، كما يفعل الحذِر الهيوب .

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالى الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبرغورها ، ثم ينشر مساويها فى العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم إلا بسوء فى كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد (١) .

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون فى تلامذتهم أثراً غير قليل ، وأثر المتصوفة من أساتذة الغزالى واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية.

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلاسفة حين كتب فى الأخلاق ؟ كلا ! وإن نظرة فى تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا فى الأخلاق ، والآداب الاجتماعية .

وإنك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم

---

(١) انظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ .

المأثورة عن سلف الأولياء . وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق إلى الله بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به ، فأخذه الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل به إلى ترويج باطلهم » ص ١٦ .

وقد لحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل إذا وجهت إلى فلاسفة الإسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الأنبياء والمرسلين ، وقرءوا للصوفية كثيراً من الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة إذا وجهت إلى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول فى ذلك :

« ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يخلى الله تعالى العالم منهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض » ص ١٧ .

فعلى هذا لافضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا ارسطاليس فيما وفقوا إليه ، حين كتبوا فى الأخلاق ، وإنما الفضل لأولئك « الأوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ولا أدرى ماذا يفعل الغزالى إذا أقسم الأغارقة بالله جهد أيمانهم أنه لم يكن لهم إله واحد ، وإنما كان لهم ألف إله وإله ، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل ! !

إنه لا شك فى أن الغزالى استقى من المنابع الفلسفية ، فى كل ما كتب عن الأخلاق ، وغاية الأمر أن وجهة الدين ، ووجهة التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها بنصيب ، وهى فى الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول .

وأنه لاحرج علينا فى أن نقرر أن الغزالى أصلى الفلسفة نار العقوق فقد كانت سبب حصافته ، وذيوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالأمر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقاليد المقوتة التى يعانيها المفكرون الأحرار ، فى جميع الأقطار الإسلامية ، منذحين!

إخوان الصفا

جمعية شبه سرية : اجتمعت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع . وإنما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك . وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التى يرونها صحيحة فى جميع الأقطار الإسلامية ، فقد كانوا يرون : « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد ألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا فى أول هذه الرسائل : « إن الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الإسلام تكلموا فى علم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة إلى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها ، فهم معانيها . ونحن قد أخذنا لب معانيها ، وأقصى أغراضهم فيها ، وأوردناها بأوجز مايمكن من الألفاظ فى إحدى وخمسين رسالة » .

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجىء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة ألموت على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا[1] .

وذكر الأستاذ الكونت دى جلارزا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد إخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « إن الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها غلطات وجب إصلاحها بواسطة الفلسفة » .

ورسائل إخوان الصفا تحتاج إلى درس طويل لمعرفة مافيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية . ويكفى أن يعرف القارىء أن الغزالى اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وإن صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه ، بل صرح الغزالى بأنه أقبل فى أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهده من المذاهب والآراء .

---

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٢٥ .

الفارابى

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسى من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان — جاء إلى بغداد . وأخذ علم المنطق عن أبى بشر متّى بن يونان النصرانى الذى توفى سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل إلى مدينة حرّان وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان .

قال سلطان (بك) محمد فى محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو فى مقدمة الفلاسفة الإسلاميين الذين طالعوا كتب أفلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها ، وأحسنوا فهمها ، يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الإلهى منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ، فسئمته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، وبيده مجلد ، وقال له : اشتر هذا . فلما علم أنه فى الفلسفة الإلهية ، قال لا حاجة لى به . فقال له الدلال : إن صاحبه محتاج إلى بيعه ، ويطلب به ثمنا قليلا . وأبيعكه بثلاثة دراهم . قال : فأخذته ووجدته تأليف أبى نصر الفارابى ، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه » .

وكان معشوق الفارابى من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل أنه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابى : « إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة» ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثانى كما لقب أرسطو بالمعلم الأول . وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . وتوفى الفارابى رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز الثمانين

وللفارابى آثار كثيرة عدا عليها الفناء ؛ ومن مؤلفاته الباقية « آراء أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكى فيه جمهورية أفلاطون .

وقد انتفع الغزالى بمؤلفاته ، وإن حكم بكفره مجازفة وبلا دليل .

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر فلاسفة المسلمين ، توفى سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة . وكان من أمهر الأطباء ، وكتابه « القانون » كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين . وقد عنى العرب ببسط آرائه الفلسفية ، وبشرح مادون فى الأخلاق ، وطبائع النفوس .

ولا ريب فى أن الغزالى انتفع بمصنفاته ، وإن جازاه جزاء سنمار ، حيث حكم بكفره ، مجاراة للعامة ، وطاعة للهوى . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالى بآرائهم فى الأخلاق ابن مسكويه : أبو على أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ . وهو من فلاسفة المسلمين ، وله عدة كتب فى الأخلاق ، أشهرها كتابه المسمى : « تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق » ، وهو يقع فى ١٨٥ صفحة ، ويقول فى مقدمته : (غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمى ، والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ماهى ، وأى شىء هى ، ولأى شىء أوجدت فينا ، وما قواها وملكاتها التى إذا استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية . . . الخ) .

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة ، لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر مايمكن على موافقة الشريعة الإسلامية وكتابه الذى نوهنا عنه ذو أثر كبير فى تكوين الغزالى من الوجهة العقلية وقد هممت بوضع مقارنة بين كتابه ذاك ، وبين كتاب الإحياء ، ثم رأيت أن هذا باب إذا أطلته طال ، واستنفد وقتا أنا محتاج إليه فى غيره من الأبواب فلأكتف ببعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسكويه نقلا يشبه أن يكون حرفياً ، من غير أن ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما أدرى أكان ذلك مقصوداً أو غير

مقصود ، ولـكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالى بمؤلفات ابن مسكويه ، وإلى القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه : (ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التى لاثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتعجيل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) .

ويقول الغزالى : (ومن انفك عن هذه الجملة كلها ، واتصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد) .

(٢) يقول ابن مسكويه (إن أول ما ينبغى أن يتفرس فى الطفل ويستدل به على عقله : الحياء ، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به يحذره ويتجنبه ، فإذا نظرت إلى الصبى فوجدته مستحيياً مطرقا بطرفه إلى الأرض ، غير وقاح الوجه ، ولا محدق إليك ، فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح ، وهذه النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لايجب أن تهمل ولا تترك) .

ويقول الغزالى : (ومهما رأى فيه مخايل التمييز . فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض ، فصار يستحيي من شىء دون شىء ، والصبى المستحيي لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه) .

(٣) يقول ابن مسكويه: (إن نفس الصبى ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شىء إلى شىء) .

ويقول الغزالى : (والطفل أمانة عند والديه ،وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة) .

(٤) يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتى يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول . وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من

اللباس : البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه) .

ويقول الغزالى : (ويحبب إليه من الثياب البيض دون الملون ويقررعنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنـكفون منه ، ويكرر ذلك عليه) .

(٥) يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لاسيما من أترابه . ومن كان فى مثل سنه ممن يماشره أو يلاعبه . وذلك أن الصبى فى ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال . إما كلها وإما أكثرها . فإنه يكون كذوباً . ويخبر ويحـكى ما لم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروقاً نماماً لجوجاً ذا فضول) .

ويقول الغزالى : (ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية ، فإن الصبى مهما أهمل خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نموماً لجوجاً ذا فضول) .

وبين العبارتين فرق صغير ، وعبارة الغزالى أدق ، لأنها تعلق فساد الطفل على إهمال تربيته وتأديبه .

(٦) يقول ابن مسكويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب . ويحذر النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع . فإن هذا البـاب مفسدة للأخلاق) .

ويقول الغزالى : (ثم يشتغل فى المـكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار ، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذور الفساد) .

ولئن قال قائل إن هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالا للنقل والمحاكاة ، فإنى أجيبه بأن موافقة الغزالى لابن مسكويه فى بعض الأبواب موافقة تـكاد تـكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله ، وأن نصيبه من الإبداع قليل .

الفصل الثانى

منبع التصوف

وما زال الغزالى يكرع من مناهل الصوفية حتى روى ؛ ثم اندفع يحدث النـاس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح فى كتاب الميزان والأربعين ، والإحياء ، بحدبه على الصوفية ، ورفقه بهم ، وإشفاقه عليهم . بل أظهر تبعيته لهم ، ونسبته إليهم ، ثم أخذ يحن إليهم حنين الغريب إلى دياره ! !

وانظر قوله فى منهاج العابدين :

« وأن اللمعة التى تظهر منا الآن ليست إلا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، والمزنى ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين — رحمهم الله أجمعين . فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام إلا تعففاً ... وما وجدوا من حب سيدهم بدأ
أفاضل صديقون أهـل ولاية ... إلى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحلل عقد الصبر من كل صابر ... وما حلت الأيام من عقدهم عقدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرساناً فصرنا رجالا ، وليتنا لا ننقطع عن الطريق . والله المستعان على المصائب ، وهو المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، إنه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ص ٩٦ و ٩٧

فهل رأيت تحرقاً أمر من هذا وألذع ؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذى يترسم الغزالى آثار أصحابه ليس فى جملته ممـا تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، وإنما هو مزيج من عـدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ،

نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول .

ويمكن الحكم بأن مافى التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن ، وحب الخير ، وبغض الشر ، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، يرجع فى جوهره إلى روح الإسلام ، أما مايختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الإسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعِدّ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العبيد .

أنفاس الصوفية

وإنك لترى الغزالى يحاكى الصوفية فى أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ، وأظهر ما يكون هذا فى ذم الأتقياء المزيفين ، وسترى أنه فى كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوصـ ـل وفاز الأحباب بالأحباب
وبقينا مذبذبين حيارى بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم وتهدى إلى طريق الصواب
ياطبيب السقام يامرهم الجر ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدرى بم أداوى سقامى وبماذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج إلى قيد من الشريعة ، ويسكت عنها لايقيدها بشىء . وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم يأته إلا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد .

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحاً ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه فى بيداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر الزبيدى وغيره إلى أن يثبتوا أنه

لم يزد على أن حاكى ما فى قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء فى طرائق السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التى تأثر بها الغزالى من بين كتب الصوفية كتاب « قوت القلوب ، فى معاملة المحبوب » تأليف أبى طالب المكى المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ولا يوجد الآن فى الأسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ، يقع الأول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧ .

ويعد هذا الكتاب — بحق — مصدراً لكتاب الإحياء ويكفى أن تقرأ باب التوكل مثلا فى الكتابين لتعرف أنهما يسيران فى طريق واحد ، إلى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالباً فى الشواهد من الآيات ، والأحاديث ، والأخبار . ويمكن الجزم بأن الغزالى أودع كتاب الإحياء كل ما صح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وإن لم يشر إلى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فإذا قال أبو طالب المكى : (ذكر حكم المتوكل إذا كان ذابيت) قال هو : (بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم) . وربما وضع عنواناً لمسألة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتى الغزالى ويدمجها فى كلامه ، فيخيل إلى القارىء أنها له ، ولولا خشية الإطالة لضربنا لذلك الأمثال .

وقد كان قوت القلوب وإحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن أبى الحسن الشاذلى أنه قال : كتاب الإحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فإنك تجد الإسهاب والتفصيل فى الإحياء ، وتجد الدقة وروعة الإخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الإحياء ، فإنه يغرب فى التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل .

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهى تقع فى ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار

الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ويسمى هذا الشرح : « إحكام الدلالة فى شرح الرسالة » .

وقد كتب القشيرى رسالته هذه : (إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال فى المقدمة فهى إذن منشور عام لإصلاح المتصوفة فى ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للغزالى من منهاج العابدين ، فهو يقول: (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة . . . الخ) .

وقد شرح القشيرى فى بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الأصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بإيجاز ، ثم فسر الألفاظ التى تدور بين هذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، إلى آخر ما قال .

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما إلى ذلك مما يهم السالكين .

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق . وقد صدق الزبيدى فيما رآه من أن الغزالى اعتمد عليها عند تأليف الإحياء ، وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل أن يثبت الإنسان أثر هذه الرسالة فى أكثر أبواب الإحياء ، وما أدرى لِمَ لم يُشد الغزالى بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب ، مع أن فضلها عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالى من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالى ونريد بذلك من قرأ لهم ، واستشهد بكلامهم فى مؤلفاته ، لأن تأثيرهم غير قليل فى تكييف أحكامه الأخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفى المعروف .

الإمام الشافعى

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها أربع سنين . وكان سنه حين مات ٥٤ سنة . وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية ، فإن لذلك مجالا غير هذا المجال ، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب « الأم » الذى ينسب إليه ليس له ، وإنما هو من تأليف البويطى كما نص الغزالى فى الإحياء .

والذى يهمنا الآن : هو أن نصور الشافعى كما تصوره الغزالى ، أى من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ، ونسيان الذات ، حتى ليقول : (وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلىّ منه حرف) .

نماذج من كلامه

وإلى القارىء نماذج من كلماته التى جرت مجرى الأمثال . قال رضى الله عنه : « أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه — المراء فى العلم ، يقسى القلب ، ويورث الضغائن — من لم تعزّه التقوى فلا عزّ له — سياسة الناس أشد من سياسة الدواب — لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتى ما شربته — ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته — من علامة الصادق فى أخوّة أخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ، ويغفر زلله — لا تشاور

من ليس فى بيته دقيق — لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته ، ولا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك — من نمّ لك نمّ عليك — من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » .

المزنى

هوالإمام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيي المزنى . ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢٦٤هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشرى مذهبه . وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لغلبه) ! ! ونقل السبكى عن عمرو بن عثمان المكى : (ما رأيت أحداً من المتعبدين فى كثرة من لقيت منهم أشد اجتهاداً من المزنى ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت أحداً أشد تعظيما للعلم وأهله منه ، وكان من أشد الناس تضييقاً على نفسه فى الورع ، وأوسعهم فى ذلك على الناس) .

حرملة

هو حرملة بن يحيي بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ هـ ، وتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواة حِكَمه . قال السبكى : (وقد ينفرد حرملة فى بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفريعاً ، كما قد يفعل ذلك المزنى وغيره فى بعض الأحايين) .

المحاسبى

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبى المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقال أنه سمى المحاسبى لكثرة محاسبته لنفسه ، وقد ألف فى الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتى كتاب . وكان الجنيد يقول : « كنت كثيراً ما أقول للحرث : (عُزلتى أنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ماوجدت بهم أُنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا ، ما استوحشت لبعدهم . وأنشد منشد بين يدى الحرث هذه الأبيات :

أنا فى الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجباً لى ولتركى وطناً فيه حبيبى

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره .

ومن كلامه : «خيار هذه الأمة هم الذين لاتشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولادنياهم عن آخرتهم — حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام — الظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمه الناس — القانع غنى وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك » .

الجنيد

هو فى نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له أحوال لايقرها شرع ولا عقل .

ومن كلامه : « إن الله يُخلص إلى القلوب من برّه ، على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك — الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار — إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم ، وابدأه بالرفق ، فإن العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

***

وفى كتب الغزالى عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وإنه لاشك فى انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة فى الإيجاز هى التى أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل .

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التى استقى منها الغزالى هو منبع الشريعة ، ممثلةً فى الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالى هى عين الأخلاق الإسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من إكثاره فى مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطأوا حين تقرأ مافصلنا من آرائه فى الأخلاق .

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالى بآرائهم فى المعاملات . مع أنه احتاط فى النقل عنهم ، ولكن هذه الحيطة لاتزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف .

الإنجيل

اطلع الغزالى على الإنجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ماشاء فى مؤلفاته . وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق بين أحد من الأنبياء .

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع . لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى إلى مطالعته للإنجيل ، ، مع أن الغزالى لم يضل إلا حين تعلق بأهداب الآداب السلبية التى دعا إليها الإنجيل ! !

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التى وضعها الإنجيل غير طبيعية ، على معنى أنه لايمكن أن يسكن إليها بطبيعته أحد من الناس . فالحكمة الإنجيلية التى تقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . حكمة غير معقولة ، لا يقرها عرف ، ولا يدعو إليها قانون — والحكمة المسيحية التى تقول : من سخرك ميلا فامش معه ميلين . حكمة غير ممكنة القبول ومن المستحيل أن تجد مسيحياً يدير

لك خده الأيمن حين تضربه على خده الأيسر ، أما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تسخره ميلا فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف مالاحظه الدكتور زويمر على مارواه الغزالى عن المسيح من أنه مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل . فقد قال : الحقيقة أنها أربعون . ولِمَ تتعب نفسك ياسيدى الدكتور فى هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال فى خيال ، لأن الذى يمكث ستين يوما أو أربعين يوماً بلا طعام لايصلح لشيء فى هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا ، فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالى فى الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل أنه لم يملك إلا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ؛ ولم يأخذ معه فى كل سياحاته إلا كوزاً وسبحة ومشطاً . ورأى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانياً ، وكان يقول دائما : حصانى قدماى ، وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم » .

وهذه من الغزالى دعوة مردودة ، لأن الإسلام لايعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بما روى من أن عيسى لم يملك إلا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، إلا أن تكون هذه أيضاً معجزة ، وعفا الله عمن لايفهم هذه المعجزات ! !

إن عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم يعرفه التاريخ . وإلا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يُمرِّض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالى عن المسيح من أنه قال : « إذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يُرى الناس أنه صائم » فإن فى هذا الحديث دعوة إلى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنباً للتمدح بمظهر الصيام .

أليس من العجيب أن يصدق الغزالى أن عيسى يقول : من أخذ رداءك فأعطه

إزارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب !؟

ويستشهد الغزالى بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء واحد . مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . ويستشهد بقول عيسى : انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم ، فإن قلتم نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وهذا يناقض الآية الكريمة « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ومن الواضح أن الذى لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجد فى طلبه .

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام ، وإنما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته ، بما زوّروا باسمه من الأحاديث ، وهذه جناية كثيرة الأمثال فى الشرائع ، فإن الإسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوّروا الأحاديث باسم النبى حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ، وروعة الجمال .

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو إلى الزهد ، فإن الدعوة إلى الزهد أصل من أصولها الأولى . ولكنا نرجح أنها كانت تدعو إلى الزهد بقدر ما تفلّ من حِدّة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم . فأما الدعوة إلى الفرار من طيبات ما أحل الله فهى دعوة بعيدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين .

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالى كل ما نقل عن المسيح ، ولكن الغزالى كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء إلى الاعتصام بحبل الشك ، فإن الشك وحده سبيل اليقين .

الفصل الخامس

أساتذة الغزالى وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالى للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لا نجد بُدًّا من التنبيه إلى أنه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالى لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية .

فمن أساتذته الإمام أحمد بن محمد الراذكانى ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس .

ومن أساتذته الإمام أبو نصر الإسماعيلى ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالى فى جرجان ، وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون .

ومن أساتذته إمام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالى فى نيسابور ، ويقال أنه كان يحسد الغزالى ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ .

ومن أساتذته الإمام الزاهد أبو على الفارمذى من أعيان تلامذة أبى القاسم القشيرى وكان أستاذه فى التصوف ، وقد عده السبكى من أصحابه .

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالى وأصحابه أثروا فى حياته العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره إلى الحياة بطابع خاص ، وفى مقدور القارىء أن يرجع إلى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالى فسنعود إليهم فى غير هذا الباب .

الباب الرابع

فى مؤلفات الغـــزالى

تمهيـــد

تـكلم ابن السبكى فى طبقاته عن مؤلفات الغزالى ، وتبعه الزبيدى فى شرح الإحياء ، ثم كتب جرجى زيدان فى صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالى ، وتمتاز هذه الـكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الـكتب بحسب موضوعاتها ، والثانى الإشارة إلى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت أو مطبوعة . إلا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر مانوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم فى المـكاتب والأسواق .

وأهم كتب الغزالى فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، « كتاب الإحياء » ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب «ميزان العمل » وهويقع فى٢١٥صفحة ، ونحسبه يفضل فى دقته كتاب الإحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لـكتابه «معيار العلم» . وقد قال فىمقدمته : (لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، وجب معرفة العمل المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه ... الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الـكتاب على طريقة التصوف .

ويلى هذين الـكتابين فى الأهمية كتاب « الأربعين » . وهو جزء من كتاب « جواهرالقرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الإحياء ، وهو قريب منه فى الموضوعات وفى التبويب .

ومن مؤلفاته الهامة فى الأخلاق كتاب « منهاج العابدين » وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة . ونقل الزبيدى عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وإنما هو لأبى الحسن على بن خليل السبتى ، وسترى بعد قليل مازور باسم الغزالى من التآليف .

وهناك « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، كتبه للسلطان محمد بن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالى فى آداب الكتاب ، وواجبات الملوك ، وحقوق الوزراء . وسترى بعد كلمة فى نسبة هذا الكتاب إلى الغزالى ، وهو يقع فى ١٢٤ صفحة وتجده مشحوناً بالأقاصيص ، وهى فكرة حسنة فى الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها كتابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه .

ولا تنس كتابه « المنقذ من الضلال » ، ففيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهة نظره فيما شهده من الحركة العلمية فى عصره ذاك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيش بالإخلاص .

وكتابه « المستصفى فى الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء .

ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه فى منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع فى شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » إلى آخر الآية .

ويعد الغزالى من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها جميعاً كما قدمنا هو كتاب الإحياء وهو سبب مارزق من الخلود .

الفصل الأول

طريقته فى التأليف

وللغزالى فى التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولا المذهب الذى يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتاباً فى مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتاب فى تهافتهم ، ويقول فى كتابه ذاك (ولنفهم الآن مانورده على سبيل الحكاية مهملا مرسلا ، من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً فى كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة) .

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر فى « المنقذ من الضلال » ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكر عليه مبالغته فى تقرير حججهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وترتيبه إياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم إلى حد الإمكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لانسرف إن كررنا أنه جميل .

ومما تمتاز به خطة الغزالى فى التأليف ، الاعتماد على الخطابيات فى إصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد فى حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار . وينطلق بعد ذلك فى ذكر القصص والحكايات التى تستولى على قلب القارىء ، وترسم فى نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر كذلك إذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ، وهو فى هذا الباب لا يعتبر مبتكراً ، فقد سبقه القُصّاص ، ولكنه آخرٌ عَنّى على الأولين ؛ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس ؛ ويكفى أن تقرأ كتب سميلز الإنجليزى المتوفى فى ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج فى رأى المعاصرين ، فإنى لم أر أحداً يستنكر منهج سميلز فى الإكثار من الأقاصيص للترغيب فى مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتب الغزالى الأخلاقية بأنها صالحة لكل قارىء ، فلم يقصد المؤلف

وضعها لطائفة معينة ، أو فريق خاص ، وإنما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالى : وهى إقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة ، تخلب العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن إنما يحسن باختياره إنه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم : إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لاتمتد إلى الإصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة لليد ، ومنها إلى الإرادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها إلى المعرفة التى يتوقف انبعاث الإرادة عليها ، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والإرادة [١] .

ويشبِّه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلفه ، والدجاج فى قفصه يرمق ما تعوّد من صاحبه ، لايكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الأمور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمراً شريفاً [٢]

والذى يمر بنظره كتاب الإحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب ، وهو يجيد فى التخييل حتى يغلب القارىء على أمره ، ويشككه فى نفسه ، ويحمله قهراً على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر فى مؤلفات الغزالى ، إذ كانت فى الأغلب وساوس صوفية غشِّيت بألوان السحر والفتون ، فلايسلم منها إلا العالمون والأقوياء .

---

(١) ٢٧٩ الأربعين . (٢) ٧٦ منهاج .

الفصل الثانى

الصوت المردد فى مؤلفات الغزالى

ومع محاكاة الغزالى لمن تقدمه من المؤلفين ، فإنا نراه يكرر كثيراً الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، فى جميع مؤلفاته ، ويمكن الحكم بأن الإحياء ، والأربعين . والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب فى الدين ، وبداية الهداية ، وجزءاً كبيراً من مؤلفاته فى الفقه والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بأن جميع هذه المؤلفات يندر أن تكون بينها فروق جوهرية . ولو أننا وازنا بين كتبه فى باب كباب الإخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وإنما تختلف بالإطناب والإيجاز .

وإذ كان الرجل مفتوناً بآراء الصوفية . فإنا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو فى المنهاج ، أقرب إليهم منه فى الإحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك .

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالى بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ، ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون إليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لايودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لغير الخواص ! .

وينتج مما سلف أن الغزالى ليس من المبتكرين المبدعين ، وإنما يمتاز بسبره على قرع ذلك النافوس الذى أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وإن لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وقد أفاق الناس ولم يروا غير الغزالى ، ثم هرعوا إليه ، فوجدوا كتاب الإحياء فى يمناه ، وما زالوا به يحلمون .

الفصل الثالث

كتاب الإحياء

هو أهم ما كتب الغزالى فى الأخلاق ، ألفه فى أخريات حياته حين جنح إلى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط .

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وربع المنجيات : ويشتمل على كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة

والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

ونظرة إلى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالى بكتاب الإحياء ، وليس كثيراً أن ذكرنا هذا البرنامج ، فإن الإحياء عمدتنا فيما قصدنا إليه من تحرير ما وضع الغزالى فى الأخلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى الغزالى نفسه فى ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه فى شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات : « ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول — حل ماعقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى — ترتيب مابددوه ، ونظم مافرقوه .

الثالث — إيجاز ماطولوه ، وضبط ماقرروه .

الرابع — حذف ما كرروه ، وإثبات ماحرروه .

الخامس — تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتاب أصلا ، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه » .

الفصل الرابع

أغلاط الإحياء

نذكر هنا شيئاً من المآخذ التى أخذها المتقدمون على الغزالى فيما يخص كتاب الإحياء . لأن فى ذلك بياناً لقيمة هذا الكتاب فى نظر المتقدمين ، ولأن فيه تمهيداً لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالى فى الأخلاق .

١ — نقل السبكى فى طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المازرى قال : وقد سئل عن الإحياء ، « أن الغزالى يستحسن أشياء مبناها على مالا حقيقة له ، مثل قوله فى قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة » !

٢ — وأنكروا عليه كما نقل الزبيدى ، قوله فى الإحياء : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، واستندوا فى إنكارهم إلى أن هذا يوهم عجز الجناب الإلهى ، وهو كفر صريح ، وإنما انحصر إنكارهم فى هذه الوجهة لإغراقها فى المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة فى سبيل الاختراع .

٣ — ونقل الزبيدى عن الأجوبة المرضية للشعرانى أن مما أنكر على الغزالى قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، إن قطعت قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وقد أجاب الزبيدى : على هذا بجواب مضحك جاء فيه: (وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وأمتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة بإتلافها كلها ، بحرقها أو رميها فى بحر ، لكان له ذلك بطريق الاجتهاد ، ولا لوم إلا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافا وسفهاً) وقد فات الزبيدى أن غرض المنكر ليس منصباً على التبديد والإسراف ، وإنما هو موجه إلى الخروج من الوقار فإنه لا مرية فى أن غرض الشرع من التجمل إنما يرجع إلى الرغبة فى أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال .

٤ — ومما أنكروا عليه قوله فى الإحياء : المقصود بالرياضة تفريغ القلب ،

وليس ذلك إلا بالخلوة ، والجلوس فى مكان مظلم ، فإن لم يكن مظلماً لف رأسه فى جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فإنه فى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية (! ؟)

وقد تنبه ناقدوه إلى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون : فمن يدرينا أن ما يسمعه المتريض هو نداء الحق ، أو أن الذى يشاهده هو جلال الربوبية ، ومن يضمن أن لا يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة !

٥ — وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ — وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع فى برية ليمتحن توكله على الله هل صح أم لا (! ؟) قالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك ؟

٧ — ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ فى بدايته يكسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه إلى قيام الليل اختياراً ، وكذلك عالج بعضهم حب المال : فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها فى البحر خوفا من أن يقع فى حب تزكية الناس له ، ووصفه بالجود ، أو الرياء فى فعلها ، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه على رءوس الأشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكان بعضهم إذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأخذه النوم (!) قال ابن القيم : وإنى لأتعجب من أبى حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التى تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول الليل ، وكيف يحل رمى المال فى البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم أن يستأجر من يشتمه ، وهل يجوز لأحد أن يقوم على رأس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت ؟؟؟

٨ — ومما أنكروا عليه حكايته عن ابن الكريتى شيخ الجنيد أنه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبى ، ونفر منى ، فدخلت الحمام ، وسرقت ثياباً فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها ، وخرجت فجعلت أمشى قليلا قليلا ،

فلحقونى وأخذوا منى الثياب ، وصفعونى وسمونى لص الحمام ، فسكنت نفسى (! ؟) قال الغزالى : فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم لهم ، وأهل النظر إلى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، إذا رأوا صلاح قلوبهم فى ذلك ، ثم يتداركون مافرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام (! !) قال ابن القيم سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التى لا يحل لأحد السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الإمام أحمد والشافعى فى أن من سرق من الحمام ثياباً عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبى من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات .

٩ — وأنكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس : قال ابن القيم ، وهذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس . فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، إذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب .

١٠ — وأنكروا عليه تقريره عن أبى الخير الأقطع التيناتى قوله : إنى عقدت مع الله عهداً أن لا آكل شيئاً من الشهوات ، فمددت يدى إلى ثمرة فى شجرة فقطعتها ، فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ؛ فدار بى فرسان وقالوا قم ! وأخرجونى إلى ساحل بحر اسكندرية ، وإذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا أنت من اللصوص ، وإذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الأمير وشرع يقدم يداً ويقطعها إلى أن وصل إلى ، وقال لى : تقدم ومد يدك ، فمددتها فقطعت إلى آخرها !! قالوا : فانظروا مايفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيناتى رائحة علم ، لعلم أن ما فعله حرام عليه ، وليس لإبليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الجنون .

١١ — وأنكروا عليه قوله : إن الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم إلى الرياسة إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأكمام .

١٢ — وأنكروا عليه حكايته عن أبى تراب النخشبى أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (! ؟) قال ابن القيم . وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات .

١٣ — وأنكروا عليه تقريره لرمى الشبلى ما كان معه من الدنانير فى دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد إلا أذله الله تعالى . قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبى حامد أكثر من تعجبى من هؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على وجه الإنكار ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبى حامد حتى يكتب عنه شىء من العلم ؟ فإن الفقهاء كلهم يقولون إن رمى المال فى البحر لا يجوز .

١٤ — وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الدارانى : إذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر فى طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن إلى الدنيا (! ؟) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : «إن الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم» ؟ وكيف لا يطلب المعاش . وقد قال عمر رضى الله عنه : « لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب إلى من أن أموت غازياً فى سبيل الله ؟» وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : «تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة ؟»

١٥ — وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادى : إنى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زاداً تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للإنسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . الثانى أن يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهى إلى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته .

قال ابن القيم : أقبح مافى هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلق أحداً . وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد .

١٦ — وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله — قيل له فإن مات ؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وإن فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة فى الآخرة .

١٧ — وأنكروا عليه أيضاً ما حكاه عن شفيق البلخى أنه رأى مع شخص رغيفاً ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفاً إلى الليل !

١٨ — وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلى تحصيل العلوم اللدنية ، دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وإنما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (! ؟)

١٩ — وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » . فقد قال : الأصنام الذهب والفضة . وعبادتهما حبهما والاعتزاز بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد .

٢٠ — وأنكروا عليه أيضاً تقريره قول سهل التسترى : إن للربوبية سراً لو ظهر لبطلت النبوة ، وأن للنبوة سراً لو ظهر لبطل العلم ، وأن للعلماء بالله سراً لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع (! ؟)

وأنا أكتفى بهذا القدر من أغلاط الإحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء فى فى ذلك الكتاب ، وسترى فى باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخمد بموت الغزالى ، بل ظلت ثائرة عدة أجيال . وما عجبت لشئ عجبى للزبيدى ، فقد تولى تفنيد هذه المآخذ ، واحداً واحداً ، وهو تعسف ممقوت ، يكفى أن تعلم أنه لا يرتكز على

قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وإنما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء . ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع إلى الجزء الأول من شرح الإحياء ، من ص ٢٧ إلى ص ٤٠ .

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكى عن الغزالى فى قص الأظفار ، فقد قال : وأما ما ذكروه فى قص الأظفار ، فالأمر المشار إليه يروى عن على كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس فى ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطئ . ومن داوم عليه أمن من وجع العين . ويروون من شعر على كرم الله وجهه هذا :

ابدأ بيمناك وبالخنصر ... فى قص أظفارك واستبصر
واختم بسبابتها هكذا ... فافعل فى الرجل ولا تعثر
وابدأ ليسراك بإبهامها ... والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويتبع الخنصر سبابة ... بنصرها خاتمة الأيسر
هذا أمان لك قد حزته ... من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور فى هذا الجواب ، وإلا فما هى الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع العين ؟ وكيف قال على بن أبى طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس ؟

الواقع أن الغزالى كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد نسى العلماء فى الدفاع عنه أن هناك عقلا يجب أن يحكم ، وأنه لن يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس

غفلة الغزالى وعناده

١

أما غفلته فدليلها ما فى كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة . وهى تقرب من ستمائة حديث .

وأنا لا أشك فى نزاهة الغزالى وبعده من الكذب على رسول الله ، فمحال على مثله فى ورعه وتقواه أن يزور على النبى حديثاً ، أو يضع فى كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات . وحقيقة الأمر أن الرجل كان «يمتاز» بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، وإلا فكيف صدق أن النبى يقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » . وأقل الناس علماً بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث ؟ وكيف يصدق ماروى من أن جبريل نزل فقال : «إن الله يقرئك السلام . ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك أينما كنت ؟ » .

ومالى أطيل فى نقد ما جاء فى الإحياء مما لا إسناد له من الأحاديث ، وهى مسطورة فى طبقات الشافعية ، فى ثمان وثلاثين صفحة من الجزء الرابع . والضعف فيها ظاهر لايحتاج إلى دليل .

٢

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء فى كتبه من الأغلاط ، ورميه ناقديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجمل به أن يتأمل نقدهم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين الثمين ، ولكنه اندفع كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق .

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه فى الإنكار عليه حتى ضاق تلامذته

ذرعا بذلك ، فكتب إليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم ، فصنف كتابا سماه : «الإملاء ، فى إشكالات الإحياء» . وما نريد الآن تلخيص هذا الكتاب ، فهو فى أيدى الناس ، وإنما نذكر مقدمته لنرى كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فإن فى هذا صورة لجانب من جوانبه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأفل على مبلغ ثقته بنفسه ، وإيمانه بصحة ما جاء فى الإحياء ، وعدم إكترائه بآراء الناس .

قال : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع فى الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه . وقصر علمه . ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحلام، وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه . ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا مُمليه إلى ضلال وإضلال ،ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فإلى الله انصرافهم ومآبهم . وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولكن الظالمون فى شقاق بعيد» .ولا عجب فقد توى[1] أدلاء الطريق، وذهب أرباب التحقيق ، فم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطمين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطاب دنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء . قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر . وتآلفوا جميعا على الفعل المنكر . وعدمت النصائح منهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، إن نصحهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم . ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم

---

(١) هلك .

أعلام المعرفة ولا يستر عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن) ... إلى آخر ما قال .

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالى يصر بعد أن نقده معاصروه على التشبث بأذيال الصوفية : ويمكننا أن نتوقع ما سيجيب به فى كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرج كل ما نلقاه فى آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ، ولنرجع إسرافه فى بعض المواطن إلى هذا الأصل الذى اختاره وارتضاه ، وهو التصوف وإلا فمن هم النقباء ، والنجباء ، والبدلاء ، والأوتاد ، إن لم يكونوا جماعة المتصوفة الذين يستبيحون ما لا يباح ؟ !

ومن أظرف ما أجاب به الغزالى فيما أخذ عليه من الأغلاط النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! ويا ليته نصح بمثل هذا فى إصلاح ما ضن فيه من الأحكام !

الكذب على الغزالى

ومما يجب التنبه له أن الغزالى لم يسلم من الكذب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويذكر الزبيدى من هذه الكتب : السر المكتوم فى أسرار النجوم) وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضاً إلى الفخر الرازى ، وأنه سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزالى كتاب : الظنون ، وكتاب النفخ والتسوية ، وكتاب المضنون به على غير أهله . قال السبكى : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه . قال الزبيدى والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالى قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العنانى فى محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون «المضنون به على غير أهله » هو ما بأيدى الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذى قصده الغزالى من « المضنون به على غير أهله» ويرجع الدكتور

العنانى أن يكون « المضنون به على غير أهله » كتاباً ضخماً يشمل آراء الغزالى الفلسفية التى يضن بنشرها على الجمهور .

وعندى أن رأى الدكتور العنانى صواب لأمرين : الأول أن الغزالى كان ينصح دائما بأن لا يلقى للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما فى كتاب الإحياء وأمثال كتاب الإحياء الثانى ما ذكره الزبيدى من أن كتاب « المضنون به على غير أهله » يشتمل على التصريح بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فإن هذه المسائل لا توجد فى النسخة التى يتداولها الناس .

وقد رجح جرجى زيدان فى فهرس تاريخ «الآداب العربية» أن كتاب : « التبر المسبوك» مدسوس على الغزالى ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده . أما ما يقربه فهو إسقاط إسم من ترجمه من الفارسية . وظهور الكتاب بمظهر الضعف فى كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالى الأخلاقيــة ، وإحالته على الإحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب ، إلا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التى توهم القارىء أن لا وضع ولا اختلاق . ومما لا مرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالى ، فأما عددها فلا يزال مظنة الارتياب .

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن نذكر القارىء بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالى فى كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته . فقد وضع مؤلفاته فى ظروف مختلفة ، كان فى بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى أوهامهم ووساوسهم . والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى أوقات لا تصلح مطلقاً للتأليف ، لأنه يشترط فى المؤلف ما يشترط فى القاضى من الصحة وهدوء البال .

الباب الخامس

فى مباحث تمس الأخلاق

نبين فى هذا الباب قيمة العمل فى ذاته ، شر هو أم خير ، حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم نتكلم عن الإرادة ، وعن الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسبيلنا فى هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية إجمالا لنبين بإزائها آراء الغزالى نوعاً من البيان .

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذى يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذى يجب أن لا يعمل ، أو ينبغى أن لا يعمل ، هو الشر . فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . أما الغزالى فكان تارة يسمى مايجب أن يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب أن لا يعمل حراما ، وماينبغى أن لا يعمل مكروها وماعدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى : حرام ، وواجب ، ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو المقول فيه : إن شئتم فافعلوه ، وإن شئتم فاتركوه .

الحسن والقبيح

وربما قسم العمل إلى : حسن ، وقبيح ، ومباح — وإليك إجمال ما فصله فى كتابه «المستصفى فى الأصول» :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة فى إطلاق لفظ الحسن والقبح :

الأول — أن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل ، وإلى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسناً ، والمخالف يسمى قبيحاً ، والثالث يسمى عبثاً .

الثانى — الحسن ما حسّنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الغزالى : ويكون المأمور به شرعاً ، ندباً كان أو إيجاباً ، حسناً ؛ والمباح لا يكون حسناً .

الثالث — الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسناً مع المأمورات .

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه . وهنا يجزم الغزالى بأن العمل لا يكون حسناً لذاته ، ولا قبيحاً لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كإنقاذ الغرقى والهلكى . ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وإيلام البرىء ، والكذب الذى لا غرض فيه .

ويحتج المعتزلة لذلك : بأنا نعلم قطعاً أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال إليه إن كان عاقلا ، وليس ذلك إلا لحسنه . وأن القوى إذا رأى ضعيفاً مشرفاً على الهلاك يميل إلى إنقاذه ، وإن كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثواباً ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتعب به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف إذا أكره المرء على إفشاء السر أو نقض العهد .

ويجيب الغزالى : بأنه لا ينكر اشتهار هذه القضايا بين الخلق وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : إما التدين بالشرائع ، وإما الأغراض .

مثارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها إلا المحققون ، من أجل ذلك نبه على مثارات الغلط ، وهى ثلاثة :

الأول : أن الإنسان يطلق اسم القبح على مايخالف غرضه ، وإن كان يوافق غرض غيره . فإن كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، وربما يضيف القبح إلى ذات الشىء ، فيكون قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيب فى واحد منها ، وهو أصل الاستقباح ، ومخطىء فى أمرين : أحدهما إضافة القبح إلى ذاته ، إذ غفل عن كونه قبيحاً لمخالفته غرضه ، والثانى حكمه بالقبح مطلقاً ، ومنشؤه عدم الالتفات إلى غيره ، بل عدم الالتفات إلى أحوال نفسه ، فإنه قد يستحسن فى بعض الأحوال عين ما يستقبحه إذا اختلف الغرض .

الثانى : ما هو مخالف للغرض فى جميع الأحوال ، إلا فى حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت إليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ، فيراه مخالفاً فى جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقاً ، لاستيلاء أحوال قبحه على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره .

الثالث : سبق الوهم إلى العكس ، فإن ما يرى مقروناً بالشىء ، يظن أن الشىء أيضاً مقرون به مطلقاً لا محالة ، ومثاله نفرة من نهشته الحية من الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الأذى مقروناً بهذه الصورة ، فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فإن الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الإنسان من المبيت فى بيت فيه ميت ، مع قطعه بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم فى كل ساعة حركته ونطقه .

نقض حجة المعتزلة

بعد أن بين الغزالى هذه المثارات أخذ يناقش ما احتج به المعتزلة ، وهو يرى أن الإنقاذ إنما يترجح على الإهمال فى حق من لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذى يلحق الإنسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الانسان

يقدر نفسه فى تلك البلية ، ويقدر غيره معرضاً عنه وعن إنقاذه ، فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ، ويعود فيقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك فى حق نفسه، فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم ، فإن فرض فى بهيمة أو فى شخص لارقة فيه ، فهو بعيد تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فإن فرض حيث لايعلم أنه المنقذ ، فقد يتوقع أن يعلم ، فيكون ذلك التوقع باعثاً . فإن فرض فى موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى فى النفس ميل يضاهى نفرة طبع الملدوغ من الحبل المبرقش : وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون بها على كل حال ، والمقرون باللذيذ لذيذ ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه .

بل الإنسان إذا جالس من عشقه فى مكان . فانه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، إذا انتهى إليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

قال ابن الرومى :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . إنما تواصى بهما الناس لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل فى سبيلهما الضرر ، فإنما يحتمله لأجل الثناء ، فإن فرض حيث لاثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء . فيميل الوهم إلى المقرون باللذيذ وإن كان خاليا عنه .

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة مايراه الغزالى فى تأييد أهل السنة ، وتخطئة المعتزلة . وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لاثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الأول — مخالفته لجوهر الشريعة ، فإن الشريعة إنما جاءت لهداية الناس ،

ولا معنى للهداية غير إرشادهم إلى ما حسن أو قبح من الأفعال ، ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبيح . ولو كانت الأعمال خالصة فى ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة إلى الشرائع ، ولكان خيراً للناس أن لا يحملوا أعباء التكاليف .

الثانى — استهانته بالشخصية الإنسانية : فإنه إذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فإن معنى ذلك أن الشخصية الإنسانية لا تصلح لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صلحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجنون على العقل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لا يكون إلا بالشرع . فالزنا عندهم قبيح ، لا لضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسناً ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يثبتون به أنه حسن ؛ ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهى الركون إلى ماوقع فى الشرائع من الأغلاط ، فقد يندر أن تجد شريعة لم تمتد إليها يد التحريف ، فإذا شئت أن تتحاكم إلى العقل لتنقى الشرائع من أوشاب المسخ والتشويه ، وقف فى وجهك الجهال باسم الدين ، وقالوا مالنا وللعقل ؟ « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » ! !

الضار والنافع

لا يفرق الغزالى بين كلمة شر وكلمة ضار ، كما يفعل علماء الأخلاق ، فمن الواضح أنى قد أعمل عملا ضاراً ولكنه غير شر ، إذا حسنت النية ، وخفى وجه الصواب .

لكن العمل الضار شر مطلقاً عند الغزالى ، لأن القاعدة عنده أن العمل ليس شراً إلا لأنه ضار ، وليس خيراً إلا لأنه نافع نعرف هذا من قوله فى ص ١٣٩ ج ٣ إحياء : (إن الكذب ليس حراما لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره) ونعرفه كذلك من تقسيمه الحرام إلى ما حرم لصفة فى عينه ، وما حرم لخلل فى إثبات اليد عليه : فلا يحرم من المعادن إلا ما يضر بالآكل ، ولا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل ، أو يضعف الصحة ، أو يزيل الحياة ، ولا يحرم السم إذا خرج عن كونه مضراً : لقلته ، أو لعجنه بغيره . وحرمة المال المغصوب ظاهرة ، لأن الغصب إيذاء للغير ، والإيذاء ضرر .

وإنما كان الضار شراً على كل حال ، لأن الحاكم بالخير أو بالشر هو الشرع . وعلم الشرع فريضة على كل مسلم ، والجاهل لا عذر له ، إلا إذا كان حديث عهد بالإسلام ، وهو عذر ضيق محدود ، لا يوجد إلا فى بعض الأحوال .

العمل والاعتقاد

ولكن إذا غلب المرء على أمره ، فاعتقد أن الشر خير ، ثم عمل بمقتضى اعتقاده ، فماذا عسى أن يكون فى رأى الغزالى ؟

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد إذ نراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الإحياء :

« إذا حكم قلب المفتى بايجاب شىء ، وكان مخطئاً فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وإن كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وإن كانت زوجته » .

ونراه يقول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » : (والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سيما الإنسان . إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل يبطلان مزاجه ، فتنعدم . ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة : وهؤلاء أيضاً زنادقة . لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته) .

وتهافت الغزالى فى هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والإنسان ، فهو إذن أقوى إيماناً وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر إلى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر إلى الإيمان بأن النفس تموت . وإذن فهو زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية ! ؟

لقد صرح الغزالى فى عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح فى ميزان العمل بأن الأمزجة تشكل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطاً للمؤاخذة ، كما أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس فى الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذى أقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت ؟ أيرى الغزالى أن من المحرم شرعاً أن يدرس التشريح ؟ وإذا كانت الشريعة تدعو إلى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك أنه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، وإلا كان إيماناً بقوة الحديد ؟ .

الحق أن الغزالى مال كثيراً إلى ترضية العامة حين بحث صحة الإيمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر ، وهو لا يدرى ! .

وما أغرب قوله فى كتابه المنقذ من الضلال : « ثم رد ارسططاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره ، وتفكير متبعيه ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابى ، وأمثالهم » .

والغزالى الذى أسرف هذا الإسراف فى الحكم على الإيمان وفق كل التوفيق حين دعا إلى حسن الظن بالناس . وانظر ماقاله فى تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . . . حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر ، لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهراً . فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة ، فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها » .

وعندى أن الرجل لا يكفر إلا إذا عرف الحق وعاند ، فأى فيلسوف رأى رأيا شاذا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة فكان من الحق على الغزالى أن يقيم الأدلة على ماعند ابن سينا والفارابى من العناد ، وسنعود إلى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب .

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالى قرر أن لادخل للعقل فى حسن العمل وقبحه ، وإنما الأمر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معاً ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر . فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع .

ولم يفرد الغزالى باباً لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل مايقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ، ويتيسر عليك إمساك مايقتضى الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة » وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : «وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شيء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الإحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع » وقال فى وصف العمل الصالح: «وذلك بأن يكون موزوناً بميزان العقل والشرع» ص ٢٢ ج ٣ إحياء

اغفال الغزالى لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالى . ولكن ماهو الشرع ؟ وما هو العقل ؟

إن الغزالى نفسه وضع فى الأخلاق أحكاماً لانظنها تستند على عقل أو دين ! ولنضرب مثلا بما وضعه لنظام الطعام . جاء فى الميزان ص ١٨٤ مانصه : « وأما المطعم فهو الأصل العظيم . إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور — ولهذا أيضاً ثلاثة مراتب :

أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة . وذلك يمكن تقليله بالعادة ، تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم إلى حمصة وبعضهم فى الوقت إلى عشرين يوما وقيل أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول فى فضائل الجوع فى الربع الثالث من الإحياء حتى قال : «روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع بين يديه ، فجلس يبكى على فقد المناجاة ، وإذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى: بارك الله فيك ياولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فإنى كنت فى حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ! فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى ! بل كان إذا خطر لى شىء أكلته من غير فكر ولا خاطر ! » .

وقال أيضاً « الفائدة السابعة من فوائد الجوع — تيسير المواظبة على العبادة . فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر تردده إلى بيت الماء لكثرة شربه ، والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه » .

ففى الكلمة الأولى نراه يدعو إلى تقليل كمية الطعام حتى تصل إلى حمصة ، وتطويل المدة حتى تصل إلى عشرين يوماً أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة . فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون المرء حياً ، فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط ؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لايرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً يضرب فى الأرض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغى أن يوصف به الأنبياء ، وإلا فكيف ينبغى لنبى أن يناجى ربه ستين صباحاً بلا طعام ، وهو مسئول عن الدعوة إلى دينه ، وقلما ينجح فى الدعوة ضعيف ؟ هذه جرأة فى وصف الأنبياء والمرسلين ، فما أحسبهم إلا رجالا أشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ، أما هذه الرهبنة التى تصورها الغزالى فلا تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين .

وفى الكلمة الثالثة «يستكثر على المريد أن يضيع وقتاً فى شراء الطعام وطبخه، ثم غسل يده، وتخليل أسنانه»، وما أدرى كيف يسير الناس، إذا قاسوا الخير والشر بهذا القياس!

الواقع أن الغزالى وضع مؤلفاته فى الأخلاق مشربة بنزعة صوفية، بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف. والتصوف ليس مذهب الأحياء، ولكنه مذهب الأموات. وما ظنك بمذهب يجيز للغزالى أن يصور النظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول «وأرفع الدرجات درجة من يلتفت إلى غده ويقصر همته على يومه، ويومه على ساعته، وساعته على نفسه، وقدر نفسه كل لحظة مرتحلا من الدنيا أو مستعداً للارتحال».

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم، ثم تقدر على الجلاد فى عالم الأحياء ولم يعد من وصف الأخلاق فى رأى الغزالى بأنها أخلاق العبيد!

الفصل الثانى

الإرادة

١

وردت كلمة الإرادة فى كتب الغزالى لأغراض متعددة: فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله، ومنها المريد الذى يرد كثيراً فى كلامه، ويريد به السالك فى ذلك الطريق، طريق الصوفية.

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها: وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة أشياء: المال، والجاه، والمعصية، والتقليد.

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه، حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة. ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع إيثار الخمول. ويرفع حجاب التقليد بتركه

التعصب للمذاهب . أما المعصية فلا يرفعها إلا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم .

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالتطهر للصلاة ، ولا بد للمصلى من إمام . فكذلك لابد للمريد من أستاذ وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنينا الآن . يكفى أن يعرف القارىء ما يقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى « الميزان » و « المنهاج » و « الإحياء » .

٢

وتارة يذكر الإرادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة . والإرادة بهذا المعنى هى المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فتراه حينا يسميها القوة العاملة إذ يقسم قوى النفس الانسانية إلى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هى قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية » الميزان ص ٢٦ .

ونراه حيناً آخر يسميها النية . ويعنونها كذلك فى الأربعين والإحياء . فلو أنك نظرت فى الفهرست لتعرف فى أى موضع تكلم عن الإرادة ، ثم نظرت فى الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الإرادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وإنما رأيتها الإرادة التى عناها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مريد . فاما الإرادة التى هى من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالى النية ، وله فى شرحها كلام طويل .

٣

يقول الغزالى « إن النية والارادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى . لايتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة. لأنه لايريد الإنسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل مالم يرد فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال ، وإما فى المآل » ص ٣٨١ ج ٤ إحياء .

ويقول (النية هى الإرادة الباعثة للقدرة ، المنبعثة عن المعرفة . وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح إلا بقدرة وإرادة وعلم ، والعلم يهيج الإرادة ، والإرادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الإرادة) ص ٢٦٢ من الأربعين .

وواضح أن الإرادة كما يراها الغزالى لاتختلف عما نراه الآن فانك لاتجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع أننا لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩ .

٤

ويقرر الغزالى فوق ماتقدم أنه لا يكفى أن يعلم الإنسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لابد من أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولابد أن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الإرادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد .

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لـكان كافيا لإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، ولـكن قام الآخر بمعاونته . فالباعث الثانى إما شريك أو رفيق أو معين . ولهذا التقسيم مزية فى تقديرما فى العمل من خير أو شر ، بتقدير البواعث ؛ فإن العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحـكم منه ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر . بل ربمـا كانت النيات أقوى فى التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيراً من عمـله ، كما جاء فى الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالى من أن أعمـال الجوارح ليست مرادة إلا لتأثيرها فى القلب ، ليميل إلى الخير ، وينفر من الشر [1] .

---

(١) أنظر ص ٢٦٣ من الاربعين

تربية الإرادة

تربى الإرادة فيما يرى الغزالى بتكرار طاعة الميل المحمود وتكرار مجاهدة الميل المذموم . وفى ذلك يقول : « وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفاً . فإن اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وإن خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال . بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفاً ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاورة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً فى وجهه حتى يضعف . . . لأن بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى أنه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعى . والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع » .

والغزالى لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وإن شئت الإرادة . وإذ كانت النية هى التى تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء العامل : فيكثر أجره إن قوى حبه للخير ، وبغضه للشر ، ويقل فيما عدا ذلك . وقد نص فى عدة مواطن من كتبه بأن المعول على القلوب ، حتى لتجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالإصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر . وأن الكبيرة إذا وقعت بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به . واستصغاره يصدر عن الإلف له ، وذلك يوجب شدة الأثر

فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات » ص ٣٣ جـ ٣

أهمية الإرادة

الإرادة شرط للمسئولية ، وشرط للجزاء . فالذى يعمل وهو ناس أو غافل لا يجازى ولا يؤاخذ . وإنما كان الأمر كذلك فيما يرى الغزالى : لأن القلب لا يتأثر عما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند الغزالى هو كل شىء ، فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصلحه ، أو تزيد فى صلاحه ، وليست السيئة سيئة إلا لأنها تفسده أو تزيد فى فساده . والجريمة الهائلة إذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها عنده ؛ لأن القلب لا يتأثر عما يفعل المرء وهو كاره ، والهفوة التافهة عظيمة الخطر إذا أتاها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ما تحلو السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وإفساده . والذنب الواحد تختلف قيمته حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى صغيرة ، لأن الإرادة تختلف قوة وضعفاً باختلاف درجة العلم ، إذ كانت ثمرة له .

ويقول الغزالى بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب . ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فإنه إذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه » ص ٢٨٤ جـ ٤ .

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، فى حرية الإرادة ، فمنهم من يقول إنها مجبورة ، ومنهم من يقول إنها مختارة ، ومنهم من يحكم بأنها دائرة بين الجبر والاختيار .

وأنا أرجح الرأى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الإرادة على الاتجاه إلى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والإرادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقاً من الأخلاق ، يسير مضطراً إلى

ما يوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللدد فى الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار إلى التزيى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسايرة الوسط الذى أعيش فيه ، وإن زعمت ثم زعمت أننى مختار . والذى يقهره ظرف من الظروف على إتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوماً فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية : فكثيراً ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول .

فإذا انتفت موانع الاختيار فالإرادة حرة فى الإقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه : وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ويصير الخير جديراً بالمثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقاً بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر إلى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للثواب والعقاب .

والغزالى لا يقول بحرية الإرادة حرية مطلقة ، ولا بعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا . وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب) ص ١٢٠ ج ١ إحياء .

والواقع أن رأى الغزالى هذا لا يفصح عن قيمة ما فى أعمال المرء من الاختيار ، فهى فى رأيه ليست جبراً لأنها تفترق عن الرعدة وهى ليست اختياراً لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف إثباته على معرفة الأجزاء والأعداد ، لأن العمل الاختيارى قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحة فى اختياره .

ويقرر الغزالى مع هذا (أن فعل العبد وإن كان كسبا له ، لا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه ، فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ، ولا لفتة خاطر ، ولافلتة ناظر ، إلا بقضاء الله وقدرته ، وبإرادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والإسلام والكفر ، والعرف والنكر ، والفوز والخسر ، والغواية والرشد ، والعصيان ، والشرك والإيمان) ص ١٢٠ جـ ١ [١] .

وأنا لا أفهم ما هو هـذا الكسب الذى يقره أهل السنة ، ويتابعهم الغزالى فى إقراره . فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، وإلا كانوا جبرية ، والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بأنه مختار ، وإلا كانوا معتزلة ، وهم قد سلقوا المعتزلة بألسنة حداد . فلم يبق إلا أن العبد لاهو حر ولا هو مختار ، وإنما هو مكتسب : وهذا الكسب أيضاً مراد لله . إذن فما الذى بقى للعبد المسكين !

الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف !

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الإرادة خروجا على الله فى ملكوته ، والغزالى يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف أن يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال !

إن حرية الإرادة الإنسانية لا تضر الله شيئاً ، فما بال أهل السنة يأبون إلا أن تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، أثراً لإرادة الله ؟

ولا قيمة لما يجيب به المتعسفون من أن اختراع الله للقدرة كاف فى إقرار الكسب للمرء ، فانه لاخلاف فى أن الله واهب القدر ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ، وإلا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون . فلم يبق إلا أن الإرادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتئسوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزالى فى تربية الإرادة ، فاذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الإرادتين تربى ؟ إن هذا إلا تناقض .

ونعود فنذكر أنه قرر فى مكان آخر من الإحياء (أن النية غير داخلة تحت

---

(١) ٢٢١ . ص ١٢٠ ج ١ إحياء .

الاختيار) وقد عرفت أنه يريد بالنية الإرادة ، وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً فى حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟ .

الحقيقة أن الإرادة التى يقرر الغزالى أنها غير مختارة ليست هى الإرادة بمعنى القصد ، وإنما ذلك ما يسمى إرادة صادقة ، وهى التى يعقبها التنفيذ . فمن الجائز أن أقصد إلى أى عمل فى أى وقت ، ولكن ليس فى مقدورى أن أرغب رغبة صادقة فى كل ما يعن لى من الأعمال ، فى جميع الأحيان . وفى ذلك يقول الغزالى « فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك . بل لايتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته » .

وخلاصة رأى الغزالى أن المرء حر فى الإقبال على ماشاء من الأعمال ، وإن كان فى إقباله إنما ينفذ إرادة الله ، ولكنه ليس صادق النية فى كل حين ، وإنما تصدق النية بالترغيب فى الجنة والتخويف من النار .

ولا يفوتنا أن ننبه على مادعا إليهفى تربية الخلق من مخالطة الأخيار ، فإن فى ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط فى الإرادة الإنسانية ، ونقله إياهامن حال إلى حال . وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول .

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمراً بالخير ، أو ناهياً عن الشر ، وإن لم ترج مثوبة ، أو تخش عقوبة .

والغزالى كما رأيت لا يرى شيئاً حسناً لذاته ، أو قبيحاً لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسناً وقبحاً ، فلا مجال بالطبع لأن يفرد باباً للضمير ، إذ كان التكليف إنما ينزل من السماء . والضمائر التى ترد فى كلامه إنما يريد بها مكنونات الصدور ، وهى والسرائر من باب واحد . والإنسان فيما يرى ليس مسئولا عن مراقبة ضميره ، إذ هو لا يعرف الضمير . وإنما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشيته ، فى السر والعلانية . فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وإن لم تتعرض لها الشرائع ، وإنما هناك رب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول .

غير أنه لا يصح لنا أن ننفى أن هناك أسباباً لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسئولية إزاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من إدراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث المتدين بها نوعا من الوجدان .

ولا نبعد عن الصواب إذا قررنا أن الغزالى يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وإن لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان . واليك قوله فى ص ٨٥ ج ١ من الإحياء (ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره) وقد ردد فى كتبه هذا الحديث (الإثم ما حاك فى صدرك ، وإن أفتوك وأفتوك) وليس ذلك إلا إشادة بهذه الحاسة الباطنية التى يفزع المرء إليها عند ما يلتبس عليه وجه الصواب .

إلا أنه يجب أن نعرف أن نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير .

والحق أن الضمير لاوجود له فى ذاته ، حتى نؤاخذ الغزالى بإغفاله ، وإنما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية . حتى إنك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد . فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأى العام ، ولذع الضمير ! ! ونهب مال الغريب لا حرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقاسون عند نهبه تأنيب الضمير . بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ، فيكون ضميره فى سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه فى سن الثلاثين ، حسبما توجب الظروف . ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب ؟

كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

وعندى أن فكرة الضمير إذا صح أن تكون عامة ، فيجب أن تقصر على المنافع البشرية : على معنى أن الضمير هو الحاسة التى تتألم لما يتوجع له الإنسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه . فإن للانسانية وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغات ، ولا تباعد الأقطار .

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيراً باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود منه ؟ وبعبارة أوضح : هل يكون خيراً لأنى أردت به الخير ، أو لأنه أنتج الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟ .

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالى فى الجواب على هذا السؤال ، ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه فى كل نوع منها على انفراد .

وقد رأيناه يقسم أعمال الإنسان إلى طاعات ومعاصى ومباحات . أما الطاعات فلا تكون خيراً إلا بالنية ، وهى الغرض فى التعبير الحديث . ويقول فى ذلك (إن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لاحكم لها فى نفسها وإنما الحكم للمتبوع) وهو يستنتج بناء على هذا الأساس أنه لاقيمة للصوم إذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعتق إذا أراد السيد أن يتخلص من مؤونة عبده ، ولا للحج إذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو إذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لاتصح عند الغزالى إلا إذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها إلى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأصلى . فان كان مساوياً له ، صار العمل لا له ولا عليه ، كما يقول . وإن كان أقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب .

والغزالى ينصح بالتدبر قبل الشروع فى الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيبين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً » .

ويلاحظ أن فى هـذا تناقضاً مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فـكان على الغزالى أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وإن ساء الغرض منه . والمفروض أننا نتـكلم عن أعمال هى فى نظر الشرع طاعات ، وهى فى ذاتها خير ونافعة ، فـكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالى بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع إلى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها يرجع نفعه إلى جمهور الناس . وما أحسب الغزالى ينهى عن الأعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، إذ لا أقل من أن تـكون تمريناً للنفس على عمل الخير . وقد صرح فى غير موطن بأن التخلق مفض إلى الخلق ومتى كان العمل نافعاً للناس ، فالدعوة إليه واجبة ؛ والعامل حر فى الاستفادة من حسن نيته إن شاء .

وأما المعاصى فهى شر على كل حال . والغزالى هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شراً عن جهل فهو آثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معذور إلا إذا كان قريب عهد بالإسلام ، وهذا عذر محدود . وقد علمت أنه يرى أن المعصية شر لأنها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية آثم وإن لم يعلم وجه إثمه ، فتحتم أن تـكون العبرة هنا بالنتائج لا الأغراض بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصى صرفة إذا خبثت النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس .

الفصل الخامس

الوسائل والغايات

إذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالى أن تكون الوسيلة دائماً شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة . وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التى يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول إليه بالصدق والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام إن أمكن التوصل إليه بالصدق وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجباً . وكما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان فى الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، إلا بكذب فالكذب مباح [١] » . وبعد أن بين الحالات الثلاث التى يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره [٢] » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

(١) أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله . فله أن ينكره .

(٢) أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، إذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ، وإن كان كاذبا .

(٣) أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره .

(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه

وقد تنبه الغزالى إلى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب لا ينبغى أن يقترف كلما

---

(١) ص ١٣٩ ج ٣ إحياء (٢) ١٤١ ج ٣ .

كانت له فائدة ؛ بل يجب أن تكون فائدته أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، وإلا وجب أن يكون الرجل من الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محظور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحظور الذى يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب . فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى . لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة . فإن شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣ .

غير أن هذه الحيطة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالى إلا إذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المساحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالى نظر بعيد .

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، فليس هذا من الأغراض التى تقاوم محظور الكذب على رسول الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء .

وضع القصص . .

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالى صرح فى الجزء الأول من الإحياء ص ٣٧ بأن (من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، وزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق) وهو يرى أن (هذه من نزغات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب) وهذا منه إسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص إن كان فى وضعها مؤاخذة . ويكفى أن نعرف أنه يذكر فى كتبه من قصص الأنبياء والصالحين ، مالم يقم على صحته أى دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطراً من التأليف !

وكما جاز الكذب فى سبيل الغاية ، كذلك تجوز فى سبيلها الغيبة . وقد صرح الغزالى بجواز الغيبة فى المواطن الآتية :

(١) التظلم . فإن من ذكر قاضياً بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة ، كان مغتابا عاصيا . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . ولا أدرى لم لا تستباح أعراض الظالمين ؟

(٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، ورد العاصى إلى منهج الطاعة .

(٣) الاستفتاء . كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجى أو أخى ، وكيف طريقى إلى الخلاص . والأسلم التعريض ، ولكن التعيين مباح بهذا العذر .

(٤) تحذير المسلم من الشر . فاذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه . فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لاغير . واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

(٥) أن يكون المغتاب مجاهراً بالفسق ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به .

وهنا يحتاط الغزالى : فيبين أنه ليس لك أن تغتاب المجاهر بفسقه إلا بما يتجاهر به . فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، إذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق .

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبة . فللإنسان أن ينم ، إذا كان فى النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، دفعاً للجانى عن المعصية ، ورداً لحق المأخوذ ماله . والنميمة فى فى هذا المثال إذا كانت ضراً فى جانب الظالم ، فهى نفع فى جانب المظلوم ، وهو أولى بالإسعاف . بل دفع الظالم عن الظلم خير له فى حاضره ، وإبعاد له عن الضر فى مستقبله ، إذا كان مستعداً للاقلاع عن الفساد .

الباب السادس

فى الأخلاق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالى ، ففى الحديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتابا لأرسطو فى الأخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتاباً فى صناعة تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتاباً فى علم الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين .

والذى يعنينى الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالى . وأقرر أنى بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددى الفلسفة اليونانية وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك ، وفقاً لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن نحا نحوهم من الفقهاء : ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحينا يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق الأبرار ، وهو اسم لبعض مؤلفاته . وأهم كتبه فى الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين . فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء .

وإذا كنا نجد ابن مسكويه مثلا يستشهد كثيراً بكلام ارسطاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقيين ، ومن إليهم من الحكماء ، فانا نجد الغزالى يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم ، والتسترى ، والمحاسبى ، ومن إليهم من الصوفية ، وربما نقل ماروى عن عيسى ، وموسى ، وداود ، ومن إليهم من الأنبياء .

تعريف الخلق

نرى الغزالى فى ص ٥٦ من « الميزان » يعرف الخلق الحسن بأنه إصلاح القوى الثلاث : قوة التفكر ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب ونراه فى ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء . ويستشهد بالحديث : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) وبالآية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول فى ص ٤٧ «وأما حسن الخلق فبأن يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها » .

وإنما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة ، التى لا تغنى شيئاً فى التحديد ، لندل على ميل الغزالى إلى الخطابيات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه فى الأخلاق .

ولكنه فى ص ٥٦ ج ٣ إحياء عرّف الخلق تعريفاً دقيقاً فقال « الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة على الجميل أو القبيح ، ولا التميز بين الجميل والقبيح . وإنما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والبذل . ثم قال : فالخلق إذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

الفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالى رأى محدود فى الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شىء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل إلى الخير منها إلى الشر . يدل على ذلك قوله « وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى القبائح ، فكيف لاتستلذ الحق لو ردت إليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهى الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب : فإنه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر ربانى ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣ .

وما نريد أن نناقش هذا الرأى بأكثر من أن نلفت النظر إلى أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لايبعد كثيراً عن الميل إلى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل إلى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وإنما توجه النفس بمقتضى الظروف . فكما أن المرء لايشتهى فى كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لايشتهى فى كل لحظة أن يكون خيِّراً أو شريراً ، وإنما يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله إلى الشر حين يوجدموجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غوياً أو ترد الغوى رشيداً . ولو لاصلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق .

كيف يربى الخلق ؟

يرى الغزالى أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لايحتاج إلى تعليم ، ولا إلى تأديب ، كعيسى ابن مريم ، ويحي بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا

سائر الأنبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ، فرب صبى خلق صادق اللهجة سخياً جريئاً .

وما أريد أن أناقش الغزالى فى حكمه بأن الأنبياء لايحتاجون إلى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الأنبياء — فى غير تبليغ الرسالة — كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن فى القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبى صلى الله عليه وسلم من الذنوب .

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالى هو التخلق : أى حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له .

والغزالى يهتم كثيراً برياضة النفس على مايرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول فى ذلك :

« كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر إلى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفاً . ثم لايزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه فى الإبتداء تكلفاً . فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسناً . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب . ثم انخفض من القلب إلى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه . حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس » .

ومن هنا كان الغزالى يرى أن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد ، لأنها بدون التكرار لاتصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء المؤبد إلا أن تصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس .

الفصل الثانى

إمكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذى قبله ، فان تربية الخلق معلقة على إزالة الخلق السيء . ويرى الغزالى أن تغيير الخلق ممكن ويقول فى ذلك تعليقاً على قوله عليه السلام : « حسنوا أخلاقكم » لو لم يكن ممكنا لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فإن الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى إلى أسفل نتيجة الثقل الطبيعى ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى التأنس ، والفرس من الجماح إلى السلاسة » .

ويظهر أن الغزالى شهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن تغييره ، وإلا كان طمعاً فى تغيير خلق الله . وقد ذكر فى ذلك أن خلق الله قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكواكب وقسم فيه قوة لقبول كمال بعده ، إذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحاً ، وإنما تصير نخلا إذا تعلق بها اختيار الآدمى فى تربيتها ويقول : « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن فى هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما وإسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » .

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبلات إلى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم فى الوجود ؛ ويقسم الناس فى تغيير الخلق إلى أربع مراتب — الأولى : الانسان الغُفْل الذى لايعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع — الثانية :

أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقياداً لشهواته ، وإعراضاً عن صواب رأيه ، فأمره أصعب من الأول ، إذ تضاعفت علته . فيلزم (١) قلع ما رسخ فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس إلى ضده — الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالى أن هذا لا يرجى صلاحه إلا على الندرة ، إذ تضاعفت عليه أسباب الضلال — الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله فى كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالى : وهذا أصعب المراتب وفى مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليبيض . ثم قال . فالأول : من هؤلاء يقال له جاهل ، والثانى : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالى لا يريد من تغيير الخلق إلا قهره وإسلاسه ، وقد صرح بذلك فى قوله :

« وظنت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ! فإن الشهوة خلقت لفائدة . وهى ضرورية فى الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه وهلك . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط » .

كيف يعرف المرء عيوب نفسه ؟

يرى الغزالى أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

وإذ كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى إن أحدهم ليرى القذى فى

عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فقد وضع الغزالى أربع طرق لمعرفة عيوب النفس .

الأول — أن يجلس المرء بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع إشارته فى مجاهدته .

الثانى — أن يطلب صديقاً صدوقا بصيراً متدينا فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة ، والظاهرة ، نبهه إليه .

الثالث — أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدى المساوى . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الرابع — أن يخالط الناس ، فكل مارآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به . فإن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الأقران لاينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شىء منه . فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره .

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالى فى هذا الباب إلى القرآن ، إذ أن الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق . وبعد أن سرد جملة من الآيات قال : « فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣ .

والظاهر أنه لا يكفى دائما أن يتحاكم المرء إلى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج إلى تحرير ، إذ لا يدرى المرء أهو مخطىء فى التخلق بها أم مصيب . وقد تنبه الغزالى إلى هذه النقطة فى غير هذا الباب ، وهو يرى أن المطلوب فى علاج البخل مثلا هو

(الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية البعد عن الطرفين) ويقول « فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحظور ، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل . فإن صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك . فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الإمساك [١] » .

وفى هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والإمساك ، وإنما يحاول الغزالى أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد .

الفصل الثالث

الطريق إلى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالى البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس : إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفائها . وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض لاتعالج إلا بضدها : فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب ،

---

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ .

علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فانه يدوم بعد الموت أبد الآباد (؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أهى ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالى بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب فى ذاك الزمان[1] .

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطباع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا فى النفس تحتاج فى اقتلاعها إلى مجاهدة وعناء ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح ! !

---

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء . وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان .

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر والسبيل إلى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع . ولكن ماهى الغاية من عمل الخير وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

غاية الأخلاق — فيما يرى الغزالى — هى السعادة الأخروية وقد فصل هذا فى الفصل الأول من « الميزان » ويقول فى ص ١١٧ من هذا الكتاب : « إن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها سميت سعادة ، إما مجازاً وإما غلطاً ، كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة . وإما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها . فإن الموصل إلى الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة (! ؟) .

وهذا يدل على أن الغزالى ليست له غاية اجتماعية : فالذى يسعف مريضاً ، أو يغيث ملهوفاً ، أو يأسو جريحاً ، أو يواسى فقيراً ، لا يهمه شفاء المريض ، ولا إغاثة الملهوف ، ولا برء الجريح ، ولا سدّ حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت فى عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب فى هذه الدنيا إنما هى عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يوصل إلى السعادة الأخروية قد يسمى خيراً وسعادة ! ! وقد نص فى ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفاً ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ عاثله ! !

مناقشة قصيرة

ونسأل الغزالى سؤالين اثنين :

أولا — إذا أسعفت مريضاً وكان لا يهمك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لسماك فى هذه الدنيا ، وإنما يهمك أن تصح نيتك فتثاب فى أخراك ، ألا تكون تاجراً فى غايتك الأخلاقية ؟

ثانياً — إذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفاً؟ ولماذا طلبت العفة ، ودعا إليها الشرع ؟

أليس ذلك لأن فيها حفظاً للصحة ، وتوفيراً للكرامة ؟ وإذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر ، فخبرنى أيجد العقل ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر ، أكثر من أنه مود بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر أن الغزالى سخر ممن يرون السعادة الأخروية فى نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وإن نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هى رضاء الله . أفلا يصح لنا قياساً على هذا أن نعد الطمع فى السعادة الأخروية عند إغاثة الملهوف ، وإسعاف الجريح ، ينافى ما تسمو إليه الأخلاق ، وأن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته فى سعادة من أغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك فى الآخرة ، وإن لم تثمر أعماله فى الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالى للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطىء فى فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلا يحسبها الغزالى نوعا من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الإحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصا بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) إذ تراه يستكثر أن يحج المرء مثلا لينتفع بموسم التجارة ! .

ونظرة صغيرة إلى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترينا السر فى فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ؛ فالتجارة التى تنبه إليها الغزالى ثم استنكرها ، ليست

شيئاً بجانب ما يستفيده المسلمون حين يتلاق حُجاجهم ، وينفُضُ كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدرء ماقد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الغزالى يرى العمل كله فى العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضاً عبادة مجردة ، وكثيراً مانص الصوفية على أن لذائذ الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل ؟ !

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق

قرر الغزالى حين تكلم فى التربية أن قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ماينقش عليه ، ومائل إلى كل مايمال به إليه . فان عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا يدل على أن الغزالى يرى أن الفطرة الإنسانية قابلة لكل شىء ، وأنه ليس لها قبل التربية أى لون . فالخير إذن يكتسب بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للإنسان بفطرته ميل خاص : لا إلى الشر ، ولا إلى الخير وإنما يسعد أو يشقى بما يقدم إليه أبواه ومعلموه .

ويؤيد هذا قوله فى تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه : أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم » ص ٦٤ ج ٣ .

ولكنا نجد الغزالى يقرر فى ص ١٢٧ من «الميزان» أن النسب الدينى أمارة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزّاع . ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال « فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث » ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا صريح فى الحكم بوراثة الأخلاق ، إذ لا يمكن أن تعتبر الرضاعة نوعاً من الأدب والتدريب ، إذ كانت تسبق الإدراك والتمييز . يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل إلى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفطر جميعاً خالصة من كل الميول ، لكان واجباً أن يغرس الحياء فى الطفل بالتربية والرياضة . لا أن ينمى ، إذ لا ينمى غير الموجود .

ومما تقدم نرى للغزالى رأيين مختلفين فى وراثة الأخلاق . فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو إلى أن لا ترضع الطفل امرأة غير متدينة بأنها تورث ؛ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالى لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضاً ، وغير محدود. ولو أنه عنى به عناية خاصة لبين لنا أن الأخلاق تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التى يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ، والطباع التى يرثها المرء من أبويه لا تعاوده إلا عند خمود مزاياه التى كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار .

إذن لا تناقض فى كلام الغزالى إلا من حيث الظاهر . فهو يقول بوراثة الأخلاق فى ثنايا آرائه المبعثرة هنا وهناك ، وإن كان يجعل للتربية السلطان الأكبر فى تكوين النفوس .

الباب السابع
فى الفضائل

نتكلم فى هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان أمهات الفضائل ومالها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى : كالصدق ، والصبر ، والتوكل ، والخمول ، وما إلى ذلك مما تدور عليه حياة الأفراد ، وينبنى عليه الاجتماع ، ليرى القارىء مايسمو إليه فى تصور المثل الأعلى للحياة .

تحديد الفضيلة

لايفرق الغزالى بين كلمة فضيلة ، وكلمة خلق ، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه إلى ما أخذ عن أرسطو وبعضه إلى ما أخذ عن أفلاطون . فهو يأخذ عن أرسطو نظرية (التوسط) التى يسميها الاعتدال ، فقوة الغضب مثلا إن مالت عن الاعتدال ، إلى طرف الزيادة ، سميت تهوراً ؛ وإن مالت إلى الضعف سميت جبناً ، فأما إن ظلت وسطاً بين الزيادة والنقصان فهى الشجاعة . فالمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان ، كما يقول .

ولا يجمد الغزالى على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل مالا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور .

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر إلى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان إلى الأنموذج . والغزالى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن

الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبرياء. فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالى تماثل تماماً مشابهة الله عند أفلاطون .

وأخذ أيضاً عن أفلاطون نظرية التوافق L,harmonie ويسميها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية . وإليك ما يقول الغزالى فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فاذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهود . وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال . فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى إشارة العقل والشرع » .

ويجب أن ننتبه إلى هذه الكلمة الأخيرة ، وهى (**اشارة العقل والشرع**) فان الغزالى يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة فى القرآن . وأما التوافق فهو فى لفظ العقل ، إذ يرجع كل الملكات إلى طاعته . وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة »

والأمر كذلك فى قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص فى «الميزان» على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات . وهذا الترتيب الواجب خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق .

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالى أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل . وقد نص على أنه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالى ، فمن اعتدال قوة العقل يحصل : حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس .

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد .

وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع .

وقد نص فى «الميزان» على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضلة القوة الشهوانية ، والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل [١]) .

وقد لحظ الغزالى أن فى هذه الفروع شيئاً من الغموض ، فكتب فى شرحها ثلاثة فصول مطولة فى الميزان ، وبين معها كذلك ما ينشأ من الإفراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسنرجع إليها فى غير هذا الباب .

الفضائل السلبية

فى مقدورنا أن نقسم الفضائل إلى إيجابية وسلبية : فالأمل فضيلة إيجابية ، لأنه

---

(١) ص ٩٠ .

يحمل صاحبه على العمل فى سبيل الحياة . والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من سوء الحال .

وبعد أن نفهم هذا ننظر فى الفضائل التى عنى بدرسها الغزالى . فنجدها فى الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الزهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع .

ولم يعن الغزالى بشرح الفضائل الإيجابية : كالشجاعة ، والإقدام والحرص ، وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل مالا يجد . فإنه لا يكفى أن يسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف . فإن الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل إلى فردية واجتماعية . فالقناعة فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات . والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء يحتاج إليها حين يعامل الناس .

والغزالى يعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لأفراد يعيشون فى عزلة وانفراد . فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالى من آداب الوحدة والعزلة ما يقنعك ويرضيك . ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراساً يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء .

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالى أن فى مقدور المرء أن يصل إلى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء ، وانظر قوله :

« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعاً

يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد » .

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى يقربون من هذه الدرجة ، وإليك ما يقول عنهم فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

وأظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد أحوال الصوفية ، فإن ما استحسن الغزالى من أحوالهم لا يمكن أن يكون مقتبساً من نور مشكاة النبوَّة ، وهل كانت النبوة ياهذا وساوس وأضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

أين مقياس العقل والشرع ؟ هاتِه ، هاتِه : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالى الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام (إن الصدق يهدى إلى البر ؟ والبر يهدى إلى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا . وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ثم قال : ويكفى فى فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال : «واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً » وقال : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » . وقال : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً » .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق ، ومن صدق فى شىء فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الأول — صدق القول. وهو أشهر أنواع الصدق ولا يجوز العدول عنه إلا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجرى مجراهم . وفى الحذر من الظلمة ، وفى قتال الأعداء ، والاحتراز من اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالى « فمن اضطر إلى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فإذا نطق به فهو صادق ، وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه . لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه . فلا ينظر إلى صورته ، بل إلى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليها سبيلا . فقد كان رسول الله إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره . كيلا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شىء . قال رسول الله : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ونمى خيراً » . ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير » .

الثانى — صدق النية والإرادة ، ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله .

الثالث — صدق العزم . فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشطره ، فهذه العزمة قد يصادفها فى نفسه وهى جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة .

الرابع — صدق الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال ، إذ لا مشقة

فى الوعد والعزم ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم ، وهذا يضادّ الصدق فيه .

الخامس — صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة . بخلاف أعمال الرياء .

السادس — الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب ، لأن لأمثال هذه الأمور مبادىء يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقائق ، والصادق من نال تلك الحقائق . . وفى هذا المعنى شىء من الغموض .

الفصل الثانى

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم . فمتى علم الانسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب رأى الغزالى من هذا فى أساس الصبر ، إلا أنه يشترط أن تصل المعرفة إلى اليقين حتى تثمر الصبر وإليك قوله فى هذا المعنى : « ترك الأعمال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى قوى باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة [١] » وقال فى موطن آخر : « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى [٢] » ويذكر إميل بوارك فى كتابه cours élémentaires de philosohie ص٣٤٣ أن العلم لا يكفى أساسا للفضيلة . فمعرفة

---

(١) ٦٧ ج ٤ (٢) ٧٠ ج ٤

الواجب لا تكفى للقيام به . بل لا بد من حبه وإرادته إرادة حرة ثابتة . وهذا التقييد يساوى ما اشترط الغزالى من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شيء أحبه ، أو كاد يحبه . ويرى الدكتور منصور فهمى والأستاذ عبده خير الدين أن المعرفة التى يراها سقراط أساس الفضيلة لابد أن تكون المعرفة الجازمة التى تورث الإرادة ثم التنفيذ . وإذن فلا اعتراض على سقراط .

أسماء الصبر

ويقرر الغزالى أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الإيمان . فان كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة . وإن كان فى احتمال مكروه سمى صبراً ، وضده الجزع . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وضده البطر . وإن كان فى الحرب سمى شجاعة ، وضده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلماً ، وضده التذمر . وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر وضده الضجر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر . وإن كان عن فضول العيش سمى زهداً ، وضده الحرص . وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، وضده الشره .

درجات الصابرين

وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال :

الأولى — أن يقهر داعى الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل إلى هذه الحال بدوام الصبر .

الثانية — أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، وهى أسوأ الأحوال .

الثالثة — أن تكون الحرب سجالا بين الهدى والضلال .

حكم الصبر

ويقسم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكروهات نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت ويصبر ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله . فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ، كنظر الأجنبى إلى امرأته .

ضرورة الصبر

ويرى الغزالى أن المرء محتاج إلى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج إليه فى السراء ، كما يحتاج إليه فى الضراء . بل هو إليه فى السراء أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . والصبر هنا يكون بأن يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق .

والطاعة تحتاج إلى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية . وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال ، الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والإخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الإخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به ، والنظر إليه بعين العجب .

ويحتاج المرء إلى الصبر عن المعاصى ، وعلى الأخص التى صارت مألوفة بالعادة ، إذ تنضاف العادة إلى الشهوة . ثم إن كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس : كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ، والمزح المؤذى للقلوب .

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع البلاء : كموت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالى أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لاينافى الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت .

والذى كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالى بهذا أن يؤكد احتياج المرء إلى الصبر فى جميع الأحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة ، وتقوية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس ما يشتهيه . و يقوى باعث الدين بأمرين : الأول إطماعه فى فوائد المجاهدة ، بالتفكر فى الأخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالى يسمى الخمول فضيلة ، ويخيل إلىّ أنه لا فضل فيه ! ! ولكن تسمية الغزالى هذه تدلنا عن شىء خاص يوضح رأيه فى الأخلاق : ذلك أنه حين دعا إلى الخمول ، لم يدع إلى التجرد من الخصائص الذاتية التى توجب ذيوع الشهرة وبعد الصيت ؛ وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتى من طريق التكلف . وهو لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله فى غير جلبة ولا ضوضاء .

وقد نبه بلطف إلى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص ، فقد يعوّد المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقلون . وفى هذا المعنى يذكر عن أبى العالية

أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالى أن التجمهر حول الأمراء فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذكر فى هذا المعنى كلمة جامعة لعمر ابن الخطاب .

ويقول الغزالى : « فإن قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم . وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك » .

فالرجل الخيِّر فيما يرى الغزالى هو الذى لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول .

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالى عن التوكل أربعا وخمسين صفحة فى الإحياء وثلاث عشرة صفحة فى كتاب الأربعين ، وسبعا وعشرين صفحة فى منهاج العابدين . وهو يبالغ فى المنهاج أكثر مما يفعل فى الأربعين والإحياء ، فإن كلامه فى الكتابين الأخيرين واحد ، وإن اختلف فى الإيجاز والإطناب ، وكثيراً ما يحيل فى الأربعين على الإحياء .

وأول ما نلاحظه أن الغزالى اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج إلى أن يعتذر عن تطويله فى كتاب المنهاج ، إذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من أهم الجوانب فى فهمه للحياة .

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهبنة ، وقطع

العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق ! .

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الأمثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر فى الأسواق ، ولكن الغزالى يقول « فالاهتمام[1] بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه ، إلا إذا أرادوا أن لا يأخذ إلا من أيدى الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فإنه تفرغ لله عز وجل ، وإعانة للمعطى على نيل الثواب » ص ٢٨٦ ج ٤

ولو أنه دعا الحكومات إلى الأخذ بيد العلماء ، وإغنائهم عن السعى إلى الرزق لتنحصر جهودهم فى نشر العلم ، لكان له قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه إلى الحضيض ، ولا يتناسب مع مكانة العلماء .

كراهة السؤال

ومع أن الغزالى يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل الثواب ، فإنا نجده فى مكان آخر يقرر أن السؤال حرام فى الأصل وإنما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن فى السؤال إظهار الشكوى من الله بإظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى المسئول :

---

(١) ناقشنى الأستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما أخذته على الغزالى من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن « الاهتمام » هو القبيح ، فأما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ أن الغزالى قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة فى طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هى الاهتمام بالرزق . ولا زلت أرى أنه لا معنى لأن يكون الاهتمام بالرزق قبيحاً بذوى الدين حتى يكون بالعلماء أقبح . ولكن عذر الغزالى أنه ينظر إلى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

قد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب . فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ .

ويمكن الحكم بأن الغزالى يحتاط أبلغ احتياط فى إباحة السؤال ، ولكن يبقى أنه من إهانة العلم والدين أن يقبل المرء بكليته على العبادة أملا فى أن يطعمه سواه ، فإنه لا يعقل أن تكون نوافل العبادات مما يترك فى سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها السؤال[1] .

حكم الكسب

والغزالى مع هذا لا يرى الكسب منافياً للتوكل فى كل حال ، فمن الخطأ فيما يرى أن « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الإنسان فى سعيه إلى مقاصده إما أن يكون لجلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالإدخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق ، أو لإزالة ضار قد نزل به . كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التى يجلب بها ثلاث درجات : مقطوع به . ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه .

---

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان أن يكون الغزالى قال شيئا من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة الخالصة تستنكر السؤال

وقد كتب فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التى كانت عنده ما يأتى :ـ كانت قدم المعرى أرسخ فى الزهد من قدم الغزالى . فقد كان متحققاً بالزهد عملا واشتهر ذلك عنه اشتهارا لا شبهة فيه . وقد قال :

الأمر لله قد أصبحت فى دعة ... أرضى القليل ولا اهتم للقوت
وشاهد خالقى أن الصلاة له ... أعز عندى من درى وياقوتى

ومع هذا فرأيه فى الزهد خير من رأى الغزالى ، لأنه كان مع إعجابه بالقناعة والزهد يعيب على القانع الزاهد أن يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

والأولى كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعاً بين يديه وهو جائع . ثم لا يمد إليه يده ، لأنه يرى السعى إلى تناوله ومضغه تفويتاً للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالى جنون « فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله نباتاً من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع ، فكل ذلك جنون » .

والتوكل فى هذا المقام — كما نص الغزالى — لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز لك ترك الأسباب ، وإنما تعلم أن الله هو مسبب الأسباب .

والثانية الأسباب التى ليست متيقنة ، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيداً ، كمن يترك الأمصار والقوافل ، ويسافر فى البوادى التى يندر أن يطرقها الناس ؛ ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطاً فى التوكل ، بل استصحاب الزاد سُنة الأولين ، ولا يزول التوكل به .

وقد أسرف الغزالى حين تحدث عن هذا الموقف فى المنهاج ، وانظر ماذا يقول : «فإن قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فأقول : إن كان لك قوة بالله تعالى وثقة بالنة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فادخل ، وإلا كن كالعوام بعلائقهم» ص ٨٢

ولو أننا رجعنا إلى ما وضعه من آداب المسافر لعلمنا أنه احتاط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بأن يأخذ قدراً يوسع به على رفقائه ، فكيف يصبح المسافر بزاده فى البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالى أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب فى المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساساً غير التنسك الذى ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالى أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون إلقاء بالأيدى إلى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، وثانياً أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، إذ لا يخلو الأمر من أن يجد آدمياً فى بحر الأسبوع أو ينتهى إلى محلة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجتزئ به !

وأحب أن يذكر القارئ هذه الصورة الغريبة ، فإن الغزالى يدعو إليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام . وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله غير مشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل » .

وما أدرى كيف يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟ إلا أن يكون السؤال من الأسباب ، وهو سبب مهين !

وأحب أيضاً أن يذكر القارئ هذا التناقض فى الجمع بين التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لأمة قائمة وهى تربَّى على هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق إلا أن الثانى قد يجد من يتصدق عليه ، أو يجد حشيشاً يقتات به !

ولو ذكر الغزالى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله كرم بنى آدم وحملهم

فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، فى طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزالى « وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم ، أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحا لمال مباح »[1].

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن فى بناء الممالك والشعوب . والغزالى يردد النفرة من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجمل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل فى السوق ولا آخر خارج منه .

ونرى الحاجة ماسة إلى أن ننبه إلى أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ صُراح ، وليس علينا من حرج إذا رأينا الغزالى من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

مقامات المتوكلين

وللمتوكل مقامات ثلاث :

الأول — مقام من يترك الزاد وهو يدور فى البوادى ، وإنما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالى لأن فيه تثبيتاً على الرضا بالموت !

الثانى — مقام من يقعد فى بيته أو فى مسجد ، ولكنه فى القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول :

الثالث — من يخرج للكسب على الوجه الذى ارتضاه حين تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

---

(١) ٢٨٨ ج ٤ .

توكل المعيل

غير أن الغزالى يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق .

أما المعيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبى بكر رضى الله عنه إذ خرج للكسب « فأما دخول البرارى وترك العيال توكلا فى حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا فى حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذاً بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله . فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم » وهذه مجازفة من الغزالى : إذ يرضى أن يعوّد الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمرنهم على الاعتداد بالموت جوعاً فى سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف .

يقول الغزالى : «وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادى التى لا تخلو عن الحشيش وما يجرى مجراه . فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ... الخ » ؟

ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ، فإنه يجر القادر على الطلب إلى الرضا بالسؤال ، وانتصار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى به بناة الأخلاق .

الادخار

ورأى الغزالى فى الادخار عجيب ، إذ أفضل الحالات عنده لمن حصل على مال بإرث أو كسب أو أى سبب من الأسباب أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت : فيأكل إن كان جائعاً ، ويلبس إن كان عارياً ، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ، ويفرق ، الباقى فى الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخر ، إلا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية !

والذى يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلا كما يقول !

والذى يدخر لأربعين يوماً فما دونها يحرم من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين .

ونحب أن يتأمل القارىء هذا الرأى فى الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على إهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به سبباً لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق ولكن كيف يحترم هذا العلم فى أمة يقول إمام الأئمة فيها : إن إدخار المال لأربعين يوما يحرم المرء من المقام المحمود ! ؟

وقد تفضل الغزالى فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة ؟ !

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت ! !

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر الأوانى مع الحاجة إليها فى كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر الأرزاق فى كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد فى كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه فى كل سنة . فياعجباً كيف يجيز التوكل إتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالى الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته .

(١) أن يغلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة !

(٢) أن لا يترك فى البيت متاعاً يحرص عليه السراق !

(٣) ما يضطر إلى تركه فى البيت ، ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) إذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه !

(٥) أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ . فإن فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على مافات !

(٦) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزىٌّ بما مكن صاحبه من صنع المعروف ! !

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجناة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم . بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء فى أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

وأظرف ما فى هذا الباب دعوة الغزالى إلى أن يجعل الرجل ما سرق منه ذخيرة له فى الآخرة ، وإن أعيد إليه فالأولى أن لا يقبله :

توكل الخائف

يقرر الغزالى أن الضرر قد يعرض للخوف فى النفس والمال . أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، أو فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة .

وجملة القول أن أسباب الخوف إما مقطوع بها أو مظنونة أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة فى الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين ؟

وهنا لا نرى بأساً من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالى ، فقد عدّ من الأسباب الموهومة الكىّ ، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة . ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ،

مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وإنما يريد أن يضيف المكتوين والمتطيرين والراقين إلى جملة الموسوسين .

ولو كان للكيّ فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل ، وهو يتعلق مباشرة بالصحة . وإنما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير ، ومحقق ، ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطاً فى التوكل إلا لأن فى تركها تعويداً على المخاطرة ، وهى من صفات الأحياء ، فاذا اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعاً من الحيطة ، فإنى لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود !

وإذا خاف الإنسان على ماله ، فله أن يغلق بيته ، وأن يعقل بعيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله إما قطعاً وإما ظناً ، فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون .

توكل المريض

يقسم الغزالى الأسباب المزيلة للمرض إلى مقطوع به ، ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام عند خوف الموت . وكان عليه أن يتنبه إلى أن المرض متى وجد ، فالموت مخوف فى كل حال ، لأن للمرض طفولة وحداثة وفتوة ، فإن ترك وهو ناشىء أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء ألداء . فأما الموهوم فشرط التوكل تركه . وقد بينا ما تختلف عليه هذه الحال . وأما المظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما إلى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظوراً كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الغزالى ، لأنا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل إغفاله فى بعض الأحيان .

وإلى القارىء الأحوال التى يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ، وأن الدواء لا ينفعه (!) .

(٢) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته .

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفع بالنسبة لعلته .

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل .

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيراً إذا طال ؛ وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر فى نفسه مبادىء البطر والطغيان بطول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض ، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان .

ويحسن أن نلفت النظر إلى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعته الصوفية ، فمن الواضح أن إيثار المرض فى سبيل الفرار من آفات العافية ، إنما هو عمل سلبى قليل الغناء . وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك إلى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحاح الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز إظهاره إلا فى الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية .

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة إلى الصبر .

(٣) أن يقصد بإظهار المرض إظهار العجز والافتقار إلى الله .

قال الغزالى : « فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله . فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف

بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للإظهار ، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء » .

وهذه الكلمة الأخيرة غاية فى الحكمة والسداد .

ملاحظات ثلاث

الأولى

جاء فى ص ٢٩٢ ج ٤ إحياء ما نصه : « فإن قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه فلا يكون إدخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده ، وإنما ذلك فى المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء والمتوكلين فى زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والأمتعة فى كل يوم وفى كل أسبوع » .

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ، وقد وضع الغزالى مقياساً لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به فى القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والإيمان بأنه لا يضيع أجر العاملين .

الثانية

جاء فى المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه إذ هو شىء من فعل الله

سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (؟!) « فإن قيل: لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم إن الله تعالى ضمن لك ضماناً مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى : « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه . فتأمل » .

وقد تأملنا كثيراً ، فلم نر هذه الحجج إلا خيالا فى خيال !

الثالثة

أراد الغزالى أن يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهى إليه الغذاء لما كان عاجزاً عن الحركة والاضطراب ، فلما انفصل سلط الله على الأم الحب لترضعه وهى راغمة ، وأدر له اللبن اللطيف ، إذ كان مزاجه لا يحتمل الغذاء الكثيف . وانتقل الغزالى من هذا إلى بيان أن الكبير قد كثرت أسباب الرفق به ، فبعد أن كان المشفق واحداً هو الأم أو الأب ، أصبح أهل البلد كافة يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسلمين ، إلى آخر ما قال .

وهذه الحجة على الغزالى لا له ، فإنه إذا كان الله وصل سرة الجنين بسرة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه القوة إذن ، إذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فأما ما قاله من أن كل واحد من أهل البلد إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فهى أمنية شعرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الإخلاص

ابتدأ الغزالى كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الأحاديث والأخبار . ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قل أم كثر ، إذا تطرق إلى العمل تـكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه . ثم بين أنه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله .

ومقياس الإخلاص فيما يرى الغزالى هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملا كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا من قوله :

« وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة هم العلماء . فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالأتباع . والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين . ويفرح بقبول الناس قوله ، وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس إلى غيرك . إذ لو اتعظوا بقولك لـكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود . ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود إليه فى الآخرة » .

وقد انحصر الإخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه الأمور عليه ، ولو كان الغزالى من الذين باشروا الحركات العامة ، ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكرنا ضروباً

من الإخلاص فى نهوض الأفراد بأممهم . وبين لنا كيف يتطرق الغرض إلى الأعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ، فليس الإخلاص وقفا على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الإخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أوجب من الإخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الإخلاص فى العبادة لا يضر الله شيئاً فإن الله غنى عن العالمين . ولكنه حين يحرم الإخلاص فيما يعمل لأمته ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مهين . ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن

فى توقى الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالى للرذيلة تعريفاً يخصها بالذات ، وإنما هى عنده إفراط فى الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الإفراط فى قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون . وينشأ من الإفراط فى الشجاعة التهور وماإليهمن الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطةوالتكبر والعجب والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغرالنفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الإفراط أو التفريط فى العفة ، فهى : الشره ، وكلالالشهوة ، والوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتكوالمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة ... الخ .

وألاحظ أن كلامه فى هذا الباب غير واضح ، وقدلاحظ هو ذلك ، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطة ، الانفراك ، التخاسس ، البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشى ، النكول ، الغمارة ... الخ .

والأمر كذلك فى الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق .

وينبغى أن لا ننسى أن الغزالى يوصى دائماً بقلع الخلال الرديئة وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحلية ، أى إخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليته بكرائم النزعات

وإذ كنا بينا رأيه فى جملة من الفضائل الضرورية للافراد ، فإنا ذاكرون كذلك رأيه فى طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة .

الفصل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى الغزالى ثلاث درجات : التفريط ، والإفراط ، والاعتدال .

أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم إذ من ثمراته قلة الانفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس .

وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار .

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتظر إشارة العقل والدين : فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حين يحسن الحلم .

قال الغزالى « فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة ، وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين[١] » .

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالى ترجع إلى ثلاثة أقسام :

الأول — ماهو ضرورة فى حق الكافة كالقوت ، والملبس والمسكن ، وصحة البدن وهذه ضرورات لايخلو الإنسان من كراهة زوالها ، ومن الغيظ على من يتعرض لها .

(١) ١٦٩ ج ٣ إحياء .

الثانى — ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير ، والغلمان ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور .

الثالث — ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص

علاجه

وقد وضع الغزالى طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور .

أما الطريقة الأولى فهى استئصال الغضب باستئصال أسبابه وإذ كانت الأسباب المهيجة له هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال ، والجاه ، فينبغى للخلوص من الغضب إزالة هذه الأسباب ، وهى فى أنفسها رذائل تحتاج إلى رياضة ، ورياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب الذى يصدر منها .

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع إلى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال .

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه .

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ،و تشمير العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه .

(٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضبان للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنبياء .

(٥) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ .

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن لم ينفع ذلك ، فاجلس إن كنت قائما ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك ، فإن لم ينفع ذلك فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد .

درء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالى علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ، أخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام . وهو على الجملة لا يجيز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصى . ويجيز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام فى غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجر إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

ثم قسم الناس باعتبار الغضب إلى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطىء الوقود بطىء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطىء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطىء الوقود سريع الخمود . قال الغزالى وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحداً فى حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظاً على المعاقب فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالى كرر النصح بتجنب من يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة . فان الفضل فى الصفح الجميل .

الفصل الثانى

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالى وليد الغضب ، فان الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد — كما نص على ذلك — أن يلزم المرء قلبه استثقال المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى .

وللحقد ما يأتى من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتغتم للنعمة تصيبه ، وتسر للمصيبة تنزل به .

(٢) أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء .

(٣) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك .

(٤) أن تعرض عنه استصغاراً له .

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر ، وهتك ستر .

(٦) أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه .

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهه مما يؤلم بدنه .

(٨) أن تمنعه حقه : من قضاء دين ، أوصلة رحم ، أورد مظلمة .

قال الغزالى : « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما يعصى به الله ، ولكن تستثقله فى الباطن . ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مماينقص درجتك فى الدين ، وإن كان لا يعرضك لعقاب[١] » .

---

(١) ١٨١ ج ٣ .

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الإحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه .

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو إحدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالى أربع مراتب :

الأولى — أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وإن كانت لا تنتقل إليه وهذا غاية الخبث .

الثانية — أن يحب زوالها إليه : لرغبته فى مثل تلك النعمة ، كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تنعم غيره بها .

الثالثة — أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها ، كى لا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة — أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين .

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسداً تجوُّز ، فإنما هى تمنى ماللغير ، وهو أيضاً مذموم لقوله تعالى (ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى :

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالى أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس .

وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران ، والإخوة ، وبنى العم ، والأقارب ، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء .

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالى ينحصر فى تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة ، فإن الحاسد إنما ينكر فى غيره نعمة أنعم الله بها عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد ، فليس أضيع من وقت يصرف فى بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه .

وقد قرر الغزالى أن الحسد يكاد يكون طبيعة فى النفوس ، وأن الأمل فى السلامة منه بالكلية بعيد .

الفصل الرابع

رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه فى علم ، أو عمل ، أو مال ، ثلاث حالات :

الأولى — أن يكون خائفاً على زواله ، ومشفقاً على تكدره ، أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب .

الثانية — أن لا يكون خائفاً من زواله ، ولكن يكون فرحا به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث إضافته إلى نفسه ، وهذا أيضاً ليس بمعجب .

الثالثة — أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئناً إليه ، ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب . فهو إذن استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم . قال الغزالى : « فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا إدلالا بالعمل . . والإدلال

وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء والعجب والإدلال من مقدمات الـكبر وأسبابه[١] » .

أسبابه وعلاجه

وإليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول — أن يعجب المرء ببدنه : فى هيئته وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .

وعلاجه أن ينظر فى مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعبث بها التراب .

الثانى — البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ماحل بقوم عاد .

الثالث — العجب بالعقل ، والـكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفة هذا الاستبداد بالرأى وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر فى مصير عقله لو أصيب بمرض فى دماغه .

الرابع — العجب بالنسب الشريف .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل .

الخامس — العجب بنسب السـلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفـكر فى مخازيهم ، وفى مصيرهم يوم الحساب .

السادس — العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع .

---

(١) ٣٧٧ ج ٣

وعلاجه أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا .

السابع — العجب بالمال .

وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله .

الثامن — العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » .

قال الغزالى « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جداً . . . وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة[1] . »

وقد بين الغزالى فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها : فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له . ومتى أعجب المرء بأعماله عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات أعماله كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والإشفاق دون العجب ، فإنه يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، إذ يظن أنه قد استغنى وفاز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالى .

---

(١) ص ٣٨٤ ج ٣ .

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالى الكبر : إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خُلق فى النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح . ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر . والكبر فيما يرى ثمرة العجب . وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبراً عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده .

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول — التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون .

الثانى — التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش وبنى إسرائيل .

الثالث — التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحقر غيره .

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الأول — العلم ، وما أسرع الكبر إلى العلماء !

الثانى — العمل والعبادة . ولكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى أن يكون الكبر مستقراً فى قلب المرء فيرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد غرست فى نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر فى حقه ، بتصعير خده وتقطيب جبينه . قال الغزالى : « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، وإنما الورع فى القلوب[1] » .

---

(١) ٣٥٥ ج ٣

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات .

الثالث — التكبر بالحسب والنسب .

الرابع — التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء .

الخامس — التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى ملابسهم، وخيولهم ،ومراكبهم.

السادس — التكبر بالقوة وشدة البطش .

السابع — التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

قال الغزالى « وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به [1] » .

وعلامات التكبر — كما ذكر الغزالى — تظهر فى شمائل الرجل : كصعر خده، ونظره شزراً ، وإطراقه برأسه ، وفى جلوسه متكئاً . وتظهر فى مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ، وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله .

وإزالة الكبر — فيما يرى الغزالى — فرض عين ، وهو لا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له .

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى — قلع شجرته من مغرسها فى القلب ، وذلك بمعرفة المرء نفسه بالذلة ، وربه بالعزة ، إلى آخر ما قال الغزالى .

الثانية — دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التي يتكبر بها الإنسان على غيره ، وأنت لا تزال قريباً من تلك الأسباب السبعة التى توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجا خاصاً ، غير أنه لا يفترق كثيراً عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فإن أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وإن كانت الثانية نتيجة الأولى .

(١) ص ٣٥٧ ج : ٣

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالى أن اللسان كثير العثرات ، ولا بد للمرء من ضبطه ، فبسط القول فى آفاته ، وكتب فى ذلك نحو خمسين صفحة ، بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز عنها .

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم قال فى تبرير ما دعا إليه من الإخلاد إلى السكوت « فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس ، والخوض فى الباطل ، والخصومة ، والفضول ، والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورات .

فهذه آفات كثيرة ، وهى سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم » .

ثم خشى أن يرميه القارىء بالإسراف فقال : « ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفى بالضرر . وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران .

فلم يبق إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الإنسان به مخاطرا [١] .

---

(١) ص ١١٨ ج ٣ إحياء .

وهذا من الغزالى إغراق فى حب السلامة . ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات، لنعرف رأيه فى طبائع الأفراد .

الكلام فيما لا يعنى

أما الآفة الأولى : فهى الكلام فيما لا يعنى ، وحده — كما قال الغزالى — أن تتكلم بكل مالو سكتّ عنه لم تأثم ، ولم تستضرّ به فى حال أو مآلٍ ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع وما استحسنه من الأطعمة والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم .

ولم يتنبه الغزالى لخطر هذا المثال . فإن الكلام عن الأسفار والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد وأخلاق الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم ، فيقصون علينا ماراأوا فى أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة والثياب ، وإن عد الغزالى حديثهم ولو احترزوا تضييعاً للزمان .

ومما أصاب فى عده مما لا يعنى أن ترى إنساناً فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكر تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه . وكذلك سؤالك امرأ عن المعاصى ، وعن كل ما يخفيه ويستحيى منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك .

والباعث على هـذه الآفة — فيما يرى — هو الحرص على معرفة مالا حاجة به إليه ، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد ، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بهـا الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

يقول الغزالى « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن

يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه [١] » (؟ !)

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهى فضول الكلام . وهو يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . قال الغزالى : « ومهما تأدى مقصوده بكلمةواحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر [٢] » .

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى .

الخوض فى الباطل

وأما الآفة الثالثة فهى الخوض فى الباطل . وعد الغزالى منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هـذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى . ويدخل الغزالى فى هذا الباب الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم . ثم قال : « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا [٣] » .

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهى المراء والجدال . والمراء كما حده الغزالى « هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه . إما فى اللفظ ، وإما فى المعنى ، وإما فى قصد المتكلم » .

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدّق به إن كان حقاً ، وسكت عنه إن كان باطلا أو كذباً . ولم يكن متعلقاً بأمور

---

(١) ص١٢١ ج ٣ — إحياء (٢) ص١٢١ (٣) ص١٢٢ ج ٣

الدين . وليس له أن يطعن فى كلام غيره بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولـكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض . يقول الغزالى : « وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل . وهو أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد . أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن » .

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه » .

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالى هو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان إلى السبعية والـكبرياء .

وأما العلاج فيكون بكسر الـكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسُبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية فى عبارات المتقدمين هى القوة الوجدانية المشتركة بين الإنسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة عن أكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ، إذ لا يأكل غير فريسته) .

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهى الخصومة . وهى لجاج فى الـكلام ليستوفى به مال أو مقصود . قال الغزالى « فإن قلت : فإذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فـكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ، ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها فى نصرة الحجة وإظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره . . . فأما الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولـكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا » .

وقد بين الغزالى كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات .

التقعر فى الكلام

الآفة السادسة هى التقعر فى الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفاصحين .

والغزالى يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاماً عادياً ، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالى أن يلجأ إلى المحسنات اللفظية ، فى غير إفراط أو إغراب ، فإن المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ فى ذلك كله تأثير .

أما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالى ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغى أن يقتصر المرء فى كل شىء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم » .

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالى ترجع إلى الباعث عليه : وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة .

الفحش

الآفة السابعة هى الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد . وقد ذكر الغزالى من ذلك مايجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، والعيوب التى يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكناية فى مثل تلك المواطن .

والباعث على الفحش فيما يرى : إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم .

وقد عد الغزالى الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، وأضاف إليها (البيان) الوارد فى حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف مالا يجوز كشفه ، أوالمبالغة فى الإيضاح حتى ينتهى إلى حد التكلف . أو البيان فى أمور الدين ، وفى صفات الله أمام العوام ، إذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس .

اللعن

أما الآفة الثامنة فهى اللعن ، لحيوان أو إنسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم .

وللغزالى فى هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول فى رجل حى من اليهود مثلا لعنه الله ، كما تقول لعن الله أبا جهل وفرعون ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى لمسلم ، فإن كان لم يجز . ولا يجوز لعن يزيد ، لأنه لا يجوز أن يقال إنه قتل الحسين ، أو أمر بقتله مالم يثبت ذلك . فضلا عن اللعنة : إذ لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » .

قال الغزالى : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هى المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالى هو الإفراط فيه ، أو المداومة عليه . فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله : فلا تقول إلا حقاً ، ولاتؤذى قلباً ، ولا تفرط فيسقط وقارك .

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهى الاستهزاء . وحده كما قال الغزالى : « الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء » .

وقد نص الغزالى على أن هذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير .

إفشاء السر

الآفة الحادية عشرة هى إفشاء السر ، وهو مذموم لما فيه من الإيذاء والتهاون فى حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالى : وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

وقد عد من حقوق الأخ على أخيه فى كتاب الصحبة : « أن يسكت عن إفشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذباً ، فليس الصدق واجباً فى كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه . فإن أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن » .

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هى الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالى أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعنّ له عذر فمنعه .

الكذب فى القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هى الكذب فى القول واليمين . وقد نص الغزالى على « أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً » وقد بينا المواطن التى أباح الغزالى فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه فى الوسائل والغايات .

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هى الغيبة . وحدها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى خلقه ، أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته » .

وقد نص على أن التصريح ليس شرطاً فى تحقق الغيبة ، بل تكفى الإشارة ، والإيماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل ما يفهم منه المقصود .

وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

(١) موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام .

(٢) إرادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره .

(٣) اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر عيوب الناس .

(٤) البراءة مما ينسب المرء إليه بتنقيص من يفعله .

وقد تنبه الغزالى إلى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ، ويقعون فى صاحبه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مع أنه يكفيهم أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون لله حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون أشخاصاً بالسوء ، فيحبطون ما يعملون .

والغزالى يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والأحاديث الواردة فى هذه الآفة . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن التى تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضاً فى الوسائل والغايات ، كما بينا رأيه فى كفارة الغيبة فى الخروج من المظالم .

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هى النميمة . وهى كما يقول الغزالى « كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان

الـكشف بالقول ، أو بالـكتابة ، أو بالرمز ، أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن[١] » .

ولم يقتصر الغزالى على تقبيح النميمة ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة إزاء النمام . وهى :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة .

(٢) أن ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله .

(٣) أن يبغضه فى الله ، فإنه بغيض عند الله .

(٤) أن لا يظن بأخيه الغائب السوء ، فإن بعض الظن إثم .

(٥) أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق .

(٦) وأن لا يحكى النميمة ، وإلا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه .

قال الغزالى : « والسعاية هى النميمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : (نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى ، فلو كان صادقاً فى قوله لـكان لئيما فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة)[٢] .

ولا شك فى أن الغزالى يرتضى حكم مصعب فى قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينقضه . والسعاية والنميمة شىء واحد ، أو كأنهما شىء واحد ، فمن الواجب أن تـكون آداب المرء واحدة إزاء النمامين والسعاة ، وهو ما نحسبه رأى الغزالى وإن لم يصرح به .

وفى الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النميمة فيما يرى الغزالى .

---

(١) ص ١٥٧ ج٣ .   (٢) ص ٢٥٨ .

كلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هى كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالى نفاق « ولو دخل الرجل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقاً ، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاماً ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك إذا أثنى على أحدهما وإذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغى أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعاديين فى غيبته وفى حضوره ، وبين يدى عدوه . . . ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه [١] » .

المدح

الآفة السابعة عشرة هى المدح ، وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، وفى بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوباً إليه ، وقد بين الغزالى أن لهذه الرذيلة أربع آفات فى حق المادح ، واثنتين فى حق الممدوح ، أما آفاتها فى حق المادح فهى :

(١) أنه قد يفرط فينتهى به الإفراط إلى الكذب .

(٢) وقد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ، ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائياً منافقا .

(٣) وقد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، ويرى الغزالى أن هذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه .

---

(١) ص ١٦٠ ج ٣ .

(٤) وقد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز .

أما آفاتها فى حق الممدوح فهى :

١ — أن المدح قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان .

٢ — وأنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضى عن نفسه ، فقل جده .

وبعد أن بين الغزالى آفات المدح ، دعا الممدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه ؛ وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح .

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هى الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيا فيا يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين .

ومن الأمثلة التى ذكرها الغزالى أنه لا يصح أن تقول عبدى وأمتى ، لأننا جميعاً عبيد الله ، ونساؤنا جميعاً إماء الله ، بل تقول غلامى وجاريتى . . . الخ .

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هى سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة . يقول الغزالى : « وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لاسيا فيا يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة » .

الغناء

الآفة العشرون هى الغناء ، وتجد تفصيلها فى البحث عن رأيه فى الفنون .

وإنه ليخيل إلى المرء أن الغزالى بالغ فى آفات اللسان ، ولكن هذه المبالغة ليست إلا نوعا من الاحتياط ، وهى وليست كبيرة على من يطمع فى مكارم الأخلاق .

الفصل السابع

رذيلة الرياء

إنك لترحم الغزالى حين تقرأ ما كتبه عن الرياء ، فإنك تتصوره رجلا كاد يجن من غلبة الجهال فى عصره . ويكفى أن نلخص آراءه فى هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين .

فما يمقته الغزالى أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل . يقول الغزالى : « ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض صوته ، والجوع هو الذى أضعف من قوته » .

ومن الرياء تشعيث الشعر ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، والتطويل فى الركوع والسجود .. الخ .

ولم يغفل الغزالى عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم فى الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات ، ليعرف بالأمانة فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة

أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها . . . الخ .

وللغزالى فى هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس لعهده كانوا يتخذون دين الله سلما لأغراضهم الخبيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال .

وأكرر ماقلته من أن الغزالى لايغضب إلا حين يحارب رذيلة يراها بعينه ، فكلامه فى ذلك صورة لعصره ، وليس أثراً لمطالعاته فى الكتب القديمة التى تصف عيوب الناس . وفى مقدور الباحث أن يستخرج من كتاب الإحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد فى عهد الغزالى . ولا أقول الحكام والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهده بضعف وفتور ، ولم يقارس السلاطين شيئاً من لسانه الحديد ! !

الباب التاسع

فى العلوم والفنون والتربية

نذكر فى هذا الباب خلاصة لآراء الغزالى فى العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذى وضعه لتربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين ، وكيف أهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالى عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل للمريد ، فى مواطن كثيرة من مؤلفاته فى الأخلاق .

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأى فى هذا البحث ، فتارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إلىّ أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل وأحسب أيضاً أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم فى كثير من الشئون . فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرؤ قليلا لبين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث فى طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر فى أن الله سخر لنا ما فى الأرض جميعاً .

غير أنه لم يكد يذكر قوله عليه السلام : «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر» ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : إما أن يكون هو العلم

بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عابث فاسق ، والثانى أن العلم بالعمل لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » .

وكان المظنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولكنه قسمها إلى قسمين : عملى ونظرى . أما العملى فقد قدم أنه ليس أفضل من العمل ، وأما النظرى فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه إلا ما يرجع « إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية من حيث إنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها » .

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكر فى المعبود ، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوت السموات والأرض إلى آخر ما قال .

ونسأل الغزالى : ما رأيه إذا توقف فهم الكتب السماوية على إدراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه إذا توقف فهم « عجائب النفوس الإنسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه إذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ، لفهم ما قد يضطر إليه المشرعون من الرسل والأنبياء فى مختلف العصور ؟

وما رأيه إذا توقف إدراك ما فى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة

للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل إلا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف .

ولكنى أحب أن أضع هذا السؤال : أيكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تُغزى الديدان التى تحدث البول الدموى ، والتى تهلك فى كل عام ما يعد بالملايين ؟ وهل يقدم محي الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته لافى التفكر فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟ .

الشك طريق اليقين

وبمناسبة العلم نثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان « ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . إذ الشكوك هى الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء إذا بقى فى شكه ، ولم يهتد إلى اليقين . وما نحسب عصر الغزالى كان يسمح له بتحرير هذه المسألة ، وإن كانت غاية فى الوضوح فمتى كان المرء حراً فى أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول إلى نتيجة معينة ، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أداه إليه الدليل .

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالى نبه فى عدة مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف . ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل اليقين ، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار . وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالى يحرص على وحدة الهيئة الإجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال . فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ،

ولـكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى أن الإجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود إلى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين .

علم الفقه

ولقد بلغ من إغراب الغزالى فى التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده !

ولـكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التى يُساس بها الناس ؟ ليـكن كذلك ! إذ ما قيمة هؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ وإذ كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هى أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون فى خصومات لو عدلنا ما احتجنا إلى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة فى هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالى !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومنّ عليهم بالقوانين الأجنبية التى يقدم إليها أصحابها آيات التقديس ، عند الشروق وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالى ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس المناكيد الذين اضطرونا بشرهم إلى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لـما احتجنا إلى قاض ولا إلى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولـكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبى كان فقيها ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شىء آخر غير قواعد الفصل فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحتقر لأجلها الفقه والتشريع ؟

اتركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا للمسلمين ، فإن الله لم يبعث محمداً إلا ليمكن للمؤمنين فى الأرض ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين .

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالى وقف فى جوهره على علماء المكاشفة .

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال إن سوء الخاتمة مُعَدّ لمن ليس له منه نصيب ! !

ويقال إن أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه لأهله ! ويقال كذلك إن أقل عقوبة من ينكره ألا يذوق منه شيئاً !

وما هى غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات التامات !

وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته مايجب أن يتورع عنه المؤمنون !

يطمع الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك فى معرفة صفاته التامات ، وهو الذى بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف فى صفات الله ، وفى كلامه ، وفى أفعاله ، وفى رؤيته بالأبصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك من المباحث التى لا يقدم عليها غير عُمْى القلوب !

والظاهر أن الغزالى ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوماً واحداً كيف تتصاول العقول ؛ فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سخر لهم ما فى الأرض جميعاً ، فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده ، وترى عينه ، ليغيب فى مجاهل من الظنون ، يسميها سفهاً علم التوحيد .

وما أسفت لشىء أسفى لانحصار الأفكار الإسلامية « فى معرفة معنى النبوة والنبى ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة

الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر إلى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملإ الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء » .

فإن هذه فى الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروبا من التفسير والتأويل .

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتابا واحداً فى تحديد المراد من الخلافة الإسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب .

والغزالى من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة فى كيفية العزلة ، ولما أراد أن ينقد الشئون الاجتماعية ، وضع كتابه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، فكان آية فى السخف والاضطراب .

وإلى من نقاضى هؤلاء العلماء ؟

نقاضيهم إلى القرآن : ففيه الدعوة إلى الملك ، وإلى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهل الأخلاق شىء آخر غير حرب الذلة والقلة : فى الأفراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فإن أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع . وإلا فأين غرر المؤلفات فى الأمور

السياسية والاجتماعية ؟ وأين البصر النافذ إلى أعماق الحياة الدولية ؟ بل وأين الخبرة بالسريرة الإنسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ، والعباد ، من كل راض بالفقر ، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثانى

الفنون

أباح الغزالى أن يُحَب المرء لجماله ، فكان ذلك منه اعترافا بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنان ، والفيلسوف ، ما فى العالم من دقائق الجمال .

ونجد فى حقوق الأخوّة من هذا الكتاب أن الغزالى ضرب المثل بالنظر إلى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجارى والخضرة . ومعنى هذا أن الإنسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث .

وشاهدنا فى هذه الفكرة ، هو أن الغزالى يؤمن بأن للروح شيئاً من السلطان ، وله بعض الحقوق . فإنه متى جاز أن يحب الرجل لجماله ، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق فى أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف . وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء .

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح : فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت ؛ فإنا سألناه : هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالى جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكنا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر إلى الفسوق . فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالى أيضاً على هذا السؤال جواب !

وإنما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميعا بالنقد والتجريح ، وإن لم ينكر (أن لله سراً في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح) وأحسب أنه لو تروّى قليلا لعرف أن لله سراً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفتون .

الشعر

رأى الغزالى فى الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود حميد ، وإن قبح فى بعض الأحوال .

وقد رأى الغزالى نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدى رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التى وردت فى ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وإنما هى من صنعة الشعر . فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التى وضعها الشعراء .

ولا أدل على هوان الشعر فى نظر الغزالى من قوله : « وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، إلا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣ .

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذى يريد أن يمثل عصره ، وقطره ، فى صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد . وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسُن منه ، لأنه ككل كلام : حسَنه حسن ، وقبيحه قبيح ! !

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الأحاديث التى رواها الغزالى فى ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ماروى الغزالى نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك الظروف .

الموسيقى

تكلم الغزالى عن الموسيق باحتياط يدل على مبلغ رأيه فى هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب القضيب ، والطبل وغيره . وما يخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان إما إنسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحكم بأن سماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، إذ لا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطبل والدف .

إلى هنا لا تجد شيئاً يغض من الموسيق باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : « ولا يستثنى من هذا إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ، وإنما حرمت لعلل ثلاث : إحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية : أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الأنس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراق ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط[١] وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فأما ما عدا ذلك فهو على الإباحة ، قياساً على أصوات الطيور .

وما نريد أن نناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحث فى الأساس الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دقته فى وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيداً عن مثار الشهوات .

ونضيف إلى ما سلف من رأيه فى الموسيق ، أنه عد بيع الملاهى من المنكرات

---

(١) البربط : كجعفر هو العود معرب بربط أى صدر الأوز لأنه يشبهه .

التى يجب كسرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد إعطاء المال للمطرب إسرافاً يجب على المحتسب إنكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار . ونص فى ص ٣٢٧ ج ٣ إحياء على أن صوت المزامير والأوتار إذا ارتفعت فى دار بحيث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق فى أن يكسر العود إذا رأى شخصاً يحمله .

ومما سلف نعلم أنه لايحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف كذلك أنه لايقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة فى نظر الفنان عن الحسنات ، إذ كان جمال الفنون يرجع أكثره إلى ماتحدث فى عشاقها من الجرأة على المألوف ، وهو ما يخافه الغزالى ويتوقاه .

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لايبيح فيما نظن أن تبنى دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير إلا لأنها تذكر بمجالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هــذه اللذة الروحية البديعة . فهى عنده «أم الخبائث» ، وأصل المنكرات .

الغناء

لم يفرد الغزالى باباً للموسيقى ، ولا للغناء ، وإنما نأخذ رأيه فى هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب الإحياء .

وأول ما يلفت النظر إلى رأيه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى أن الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكروه ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا إلى السفاهة ، وسقوط المروءة :

ومتى كان الغزالى يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فإنه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه إلى الحضيض ، ويسقط عدالته بين الناس .

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فإنا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد والحكومات

من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضرباً من اللهو المكروه ، وإنما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الغذاء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالى . بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جناية !

والفن — كما تعلم — لا حياة له إلا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء إلا إذا وجد هواة الإنشاد والسماع ، ومتى كان الإكثار من الإنشاد ، والإفراط فى السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد أن يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد أصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالى من إباحته إذا لم توجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا أن تقول إنه مباح !

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجيز الغزالى أن يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتنته .

وقد توقع الغزالى أن يسأل سائل : هل ذلك حرام فى كل حال ، حسما للباب ، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت ؟ وأجاب بأن هذه المسألة يتجاذبها أصلان : أحدهما أن الخلوة الأجنبية ، والنظر إلى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة . والثانى أن النظر إلى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين . فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع ، بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه[1] .

---

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ إحياء .

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالى من أن يكون فى الغناء تشبيب بوصف الخدود، والأصداغ، وحسن القد، والقامة، وسائر أوصاف النساء، بشرط أن لا يكون فى امرأة معينة، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال، وعلى المستمع أن لاينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريته، فإن نزله على أجنبية فهو من العصاة. ويحرم على من كان فى غرة الشباب أن يستمع، إذا كانت الشهوة غالبة عليه، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (؟)

ما يباح من الغناء

وإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالى.

(١) غناء الحجيج، إذ يدورون فى البلاد بالطبل والشاهين والغناء.

(٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو.

(٣) الزجريات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء. وهذا مباح فى كل قتال مباح، ومندوب فى كل قتال مندوب، ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة.

(٤) أصوات النياحة فى البكاء على الخطايا والذنوب.

(٥) السماع فى أوقات السرور المباح، كالغناء فى أيام العيد، وفى العرس، وفى وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظه القرآن، وعند قدوم الغائب.

(٦) سماع العشاق، تحريكا للشوق، وتهييجاً للعشق، وتسلية للنفس. وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله، كمن يعشق زوجته، أو سُرِّيَّته، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته، وكذلك إن غضبت منه جاريته، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب، فله أن يحرك بالسماع شوقه، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال. فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء.

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى شىء إلا رآه فيه . وقد أطال الغزالى فى هذه النقطة ، ثم قرر أن إطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب سواه يتصور له نظير ، إما فى الوجود وإما فى الإمكان ، أما جمال الله فلا ثانى له ، لا فى الإمكان ، ولا فى الوجود (؟)

آداب السماع

لا يعتد الغزالى بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ، ولاحظ له فى السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات ، إذ كان هذا الذوق لا يتطلب لوجود غيره الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزالى ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان .

ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود ، الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (! ؟) .

وإذا سمع أحد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو تعطش إلى منتظر ، أو شوق إلى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو خوف من فراق ، أو فرح بوصال ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، إلى غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالا فى نفسه ، فيورى زناد قلبه .

ولهؤلاء وضع الغزالى الآداب الآتية :

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والإخوان : فليس له أن يسمع وقت شغل القلب ولا فى شارع مطروق ، أو موضع كريه ، أو مع قوم من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبتهم ، ومراعاتهم .

(٢) أن يكون مصغياً إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى

الجوانب ، متحرزاً عن النظر إلى وجوه المستمعين ، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه .

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط نفسه . ولكن إن رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح .

(٤) موافقة القيام فى القيام ، إذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ، فلابد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة .

وهناك أدب خامس وضعه الغزالى خاصاًبالشيخ المرشد ، وهو ملاحظة المريدين ، فينبغى أن لا يسمع فى حضورهم ، إذا كان فيهم من لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ، أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائلته ، وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم يُحْكِم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل .

الرقص

وقد رأينا الغزالى يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو ما يجرى فى مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للآخرة ، وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل فى مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريته . وعلى كل حال فلنسجل هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالى أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات . وما نريد أن نفصل أثر هذا التحرج فى حياة الأمم ، وإنما ننبه فقط على أن الغزالى يضع حول الشهوة أسواراً من حديد ، ولا تُخرج الأخلاق عنده إلا رجالا مملوئين بالحيطة ، قد بُغّضت إليهم بسمات الحياة ، وقلما ينجح هؤلاء فى ميدان الحياة لأن التنسك باب الجمود .

الفقه والتصوير

أراد الغزالى أن يذم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبر ، فلم يزد على أن قال : (وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما[١]) .

إذن الصناعات دون العلوم ، وإنما كان الطب والحساب إلى آخر من الصناعات ؛ لأن العلم فيما يرى الغزالى هو ما يوصل إلى الآخرة ، وما يخص الدنيا فهو صناعة . وقد نص على أن من الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين فى الدنيا) من أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ، ليكون بقيامه بها كافياً عن المسلمين مهما فى الدين . ثم قال .

« وليجتنب صناعة النقش والصياغة ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين[٢] » .

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الأطفال منكراً تجب إزالته « والصور التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب إزالتها على كل من يدخله إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة ، وليعدل إلى حمام آخر ، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها[٣] » .

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان . . . وأما الصور التى على النمارق ، والزرابى المفروشة ، فليس منكراً . وكذا على الأطباق

---

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣

(٢) ٧٩ ج ٢

(٣) وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتى : لعل الشيخ محمد صائم الدهر الذى شوه وجه أبى الهول وغيره من الصور وجعل أكبرهمه ذلك قد سرى إليه هذا الفكر من إحياء الغزالى وقد رأيت فى بعلبك صوراً فى الرواق المحمول على الأعمدة وهى مشوهة ، وقيل لنا إنها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت كذلك صورة البعل وهو معبود أهل ذلك البلد قديما مشوهة ، وهو وجه إنسان بصورة أسد

والقصاع ، لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تـكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه (آ) » .

على أن كلمة الغزالى لم تـكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ، فقد رأيت كيف بين أن تشييد البنيان ، وكل ماتزخرف به الدنيا كرهه ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد : « وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لافائدة فيه إلا مجرد الزينة فـكذا الدور » .

وإذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فـكيف تـكون صناعته غير مهمة [١]

خلاصة هذا البحث

نرى مما سلف أن النقش مكروه وأنه لايجوز تصوير الحيوان ، ولا حرج فى استعمال النمارق والزرابى المصورة ، بصورة الحيوانات طبعا ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنيت لأن الصور فيها ستصير ممتهنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الأطباق والقصاع . وهو يتبع فى هذا الرأى جمهور الفقهاء ، إذ يرون التصوير داعيا إلى الوثنية . وقد نهوا عما يذكر بعبادة الأوثان .

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن ننبه إجمالا على أن الغزالى لم يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التى قدمناها له فى الفنون الجميلة تدل على إهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق .

ومما يلاحظ أنه يغشى بعض النظرات الدقيقة فى كتبه بأخبار وأقاصيص تحمل القارىء حملا على ازدراد الزهادة ، والإخلاد إلى الخمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن فى هذا الشطط شيئاً من الحق ، وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة المطلقة من مواطن الشبهات . ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك كثير من العيوب .

---

(١) كأنى بالرجل ينظر إلى الشىء نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه إذا كان على حد الاعتدال وينظر إليه نظرة صوفية فيكرهه وهذا منشأ الاضطراب الظاهرى لأن الـكلام فى موضوعين .
عبد الوهاب النجار

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسميها الغزالى رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبى فى التعابير القديمة تقابل كلمة طفل فى التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء كما تقول فتاة حسناء .

وقد سبقت كلمتنا فى وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، وهو تفصيل لما أجملناه فى واجبات الآباء .

فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء .

(٢) وأن لا يحبِّب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التنعم ، فيعسر تقويمه بعد ذلك .

(٣) وإذا رأى فيه مخائل التميز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ، وأحسن ما تنمى به أن تستعان فى تأديبه وتهذيبه .

(٤) وليعلم أن أول مايغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغى أن يؤدب فى ذلك ، وأن يعوّد أخذ الطعام بيمينه ، والبدء باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق إلى الطعام ، وعدم تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتمهل فى الأكل وإجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم ، والحذر من تلطيخ اليد والثوب ، وتعوّد الخبز القفار فى بعض الأوقات ، حتى لا يرى الأدم حتما[١] .

---

(١) الخبز القفار هو الذى لا أدم فيه .

(٥) وينبغى أن يقبح عنده كثرة الأكل ، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بأى طعام كان .

(٦) وأن يحبب إليه الأبيض من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء والمخنثين ، وأن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا التنعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب فى ذلك .

(٧) وإذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغى أن يجازى عليه بما يفرح به ، وأن يمدح أمام الناس ، فإن أساء مرة فيجمل بالوالد أن يتغافل عنه ، ولا يكاشفه ، ولا سيما إذا تستر الطفل واجتهد فى الإخفاء ، فإن مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالاة . فإن عاد فليعاتب سراً ، وليحذر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وقع الملام ، وسماع التأنيب ، وركوب القبيح .

(٨) وينبغى أن يمنع من النوم نهاراً ، فإن ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضاؤه ويعود خشونة الفراش .

(٩) ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لايخفى إلا ما يعتقد أنه قبيح .

(١٠) وليعوّد المشى فى بعض النهار ، لتحبب إليه الحركة والرياضة .

(١١) وليمنع من كشف أطرافه .

(١٢) وينبغى أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشىء مما يملكه والداه ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع ، وطيب الحديث .

(١٣) ويجب أن يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لافى الأخذ وأن الأخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، إن كان غنياً ؛ وذلة ، ومهانة ، إن كان فقيراً : فلا يصح أن يأخذ شيئاً من الأطفال .

(١٤) وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواه ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يسند رأسه بساعده ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام .

(١٥) ويجب أن يمنع القسم ، صادقاً كان أو كاذباً ، لئلا يعتاد ذلك .

(١٦) وليعوّد أن لا يتكلم إلا مجيباً ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويفسح له المكان .

(١٧) ويجب أن يمنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب .

(١٨) وليعوّد الصبر إذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ، ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنساء .

(١٩) وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به ؛ فإن منع الصبي من اللعب يميت قلبه ، ويخمد ذكاءه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتّاب .

(٢٠) وينبغى أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبى .

(٢١) وإذا بلغ سن التميز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة ، والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج إليه من أمور الشرع .

(٢٢) وليخوّف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الأطفال .

هذه خلاصة ما وضع الغزالى فى التربية . وما أنكر أن فيها شيئاً من التكرار وأرى أنه فى مثل هذه المواطن جميل .

وإنما ألاحظ أنه لا معنى لأن تحبب إلى الطفل الثياب البيض بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة إذ ذاك[1] . وألاحظ كذلك أنه لا يصح أن يعلم الصبي أن هناك فئة مخنثة تميل إلى الملون من الثياب ، فقد يحسن أن لا تطرق آذان الصبي بمثل هذا الهجر ، بل يجب أن لا يعرف أن الطفل قد يتخلق بأخلاق النساء .

(١) يرى الأستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية إلى النظافة ، لأن الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج إلى التطهير .

ولا أفهم معنى لأن يدعى الطفل إلى عدم إرخاء يديه ، بل يضمهما إلى صدره حين يمشى ! ويضحكنى إن ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التى لا تجمل بالمعلمين[١] .

ومن أدق ما تنبه له الغزالى تلميحه إلى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل إليه .

والغزالى يسمى المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له فى هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم فى عصره من المدارس الأولية والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (فى تعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال . ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يُحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى نفوس الصبيان بذور الفساد » .

والغزالى يُعد الطفل فى الواقع لأن يكون جندياً فى الحياة إذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وإن كان لم يغفل عن غايته الأخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظر فى كل ساعة ، وأن العاقل من تزود من دنياه لأخراه . ورأى هذه الوصية خطرة ، إذ تضعف العزم فى نفوس الأحياء ، ولا تترك للإسلام نفسه جيشاً يحفظ به ثغر ، أو يفتح به قطر ، وما كان الإسلام إلا دين الغزاة الفاتحين .

تربية البنات

لم يتكلم الغزالى عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهبهن نصيباً من عنايته . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون . وسترى حين نتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه ، فإن لم

---

(١) وضع فضيلة الأستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التى كانت بيده ما يأتى : إن أطفال أهل السودان فيهم هذه العادة على أتمها فانهم يعودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم . ومن فعل ذلك عير . بل كثيراً ما نجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضعها على ساعده ويذهب إلى أمه ليريها صبره على بقاء النار تأكل فى جسمه دون إظهار تألم قائلا : ابشرى يا أمى أنا أخو البنات.

يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، ولـكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام . ومعرفة الفرائض هذه لا تفيد المرأة شيئاً فى الحياة المنزلية ، وهى العبء الملقى على عواتق النساء .

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذى وضعه الغزالى لتربية الطفل ، ورأيت ما خطه لبرنامج التدريس فى المكاتب الصغيرة ؛ والآن نقفك على رأيه فى تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الأمد القصير ، الذى أعد للأطفال .

والغزالى كان أستاذاً فى المدرسة النظامية ، وكان يختلف إلى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحركة ألهمته البحث فى التعليم من حيث إنه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالى عن التعليم ، وأطال فى كتاب الإحياء ، وتكلم عنه فى الاملاء على ما أشكل من الإحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الأفضلية بالتفصيل .

وكل ماتقيد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ؛ ويقول فى ذلك : (وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخرويه الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه)[١] .

وعلوم الدنيا هى فى رأيه مايشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فالذى يعلم

---

(١) ص ٦٠ ج ١ .

علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف ، ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين .

أضف إلى هذا أن الغزالى — لورعه — يشبه العلم بالمال ، فكما أن لصاحب المال حال إستفادة ، وحال إدخار ، وحال إنفاق على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف الأحوال .

والتبصير هو التعليم . والغزالى لاينكر أن يكون المرء معلماً ، فقد كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة . أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدم أخذ الأجر ، ولكن هذا لايقدح فى نظره إلى التعليم كمهنة ، فإنه يكفينا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتمل الإجادة ، كما تحتمل القصور ، وأنه يجب على المعلم كيت و كيت ، ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول .

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه . ويقول الغزالى فى توابع هذه البنوة وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتواد .

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطالب أجراً على إفادة العلم ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا .

(٣) أن لايدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من العلم الجلى .

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح والرحمة ، لابطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار .

(٥) أن لايقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراء علمه : فليس لمعلم اللغة أن يقبح فى نفس المتعلم علم الفقه مثلا ، بل ينبغى أن يوسع عليه طريق التعليم فى غيره . وإن كان متكفلا بعدة علوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقى إليه مالا يبلغه عقله .

(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجلىّ اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلى تدقيقاً يدخره عنه .

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله . وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس إليه ، وأولاهم به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول .

(٩) أن يجمّل نفسه كى يعظم فى نفوس طلبته فلا يستصغروه ، ولم يذكر الغزالى هذا فى آداب المعلم . ولكن ذكره استطراداً فى باب النظافة حيث قال : (كان رسول الله مأموراً بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم . ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله : وهو أن يرعى من ظاهره مالا يوجب نفرة الناس عنه) .

(١٠) أن ينظر فى نية المتعلم : فإن رآها حسنة علمه ، وإن رآها سيئة أعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالى أن نعلم من نرى فى أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أوملبسه ، أومسكنه ، ما يدل على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفى فيما يرى الغزالى أن يقول المعلم : إنما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فإن استعمل السيف فى الأذى فهو وحده المسئول .

وربما كان يحسن بالغزالى أن ينصح المعلم ببذل الجهد فى غزو الغرائز السيئة التى يراها فى تلميذه ، فأما الضن عليه بالعلم فهو فيما أرى هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يغنى ولا يفيد .

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتى من الواجبات :

(١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف .

(٢) أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق .

(٣) أن يذعن لنصيحة المعلم إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق .

(٤) أن يحترز فى مبدإ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف الناس فإن ذلك يحير ذهنه ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولا طريقة أستاذه ، ثم يصغى بعد ذلك إلى الشبه والمذاهب.

(٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم واستوفاه ، وتطرّف من البقية .

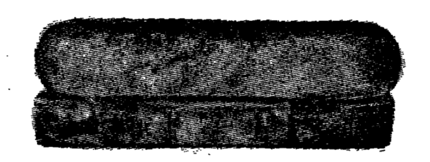
(٦) أن لا يخوض فى فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب .

(٧) أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض . وهذه الطريقة فيما أرى إنما تصلح فى الفنون التى كان يعرفها الغزالى إذ ذاك ، فمن الواضح أن الفقه مثلا طريق للأصول ، ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق الحساب ، أو أن النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة أو قوة الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالى أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثانى السعادة الدنيوية والآخرة خير من الأولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة

أدلته . وعلم الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل .

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالى أن للحساب ثمرة لاتقل شأناً عن وثاقة دليله ، ولكن عذره أنه عاش فى عصر قد غاب عن إنسانه أنه خاق لتعمير الوجود .





« مقلمة للغزالى موجودة بدار التحف العربية بالقاهرة »

الباب العاشر

فى الحقوق والواجبات

الحق هو مالك، والواجب هو ماعليك .فتقول : من حقى أن أتعلم ، ومن واجبى أن أعمل بما أعلم .

ولكن الغزالى يضع كلة حق ، موضع كلة واجب . وربما استغنى عنهما جميعاً بكلمة أدب .

وقد فصل الغزالى حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب التاجر ، والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ماللمرء ، وماعليه .

ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره فى الحقوق والواجبات ، ليعرف القارىء اتجاه الفكر الإسلامى فى ذلك الحين .

١

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالى أن يجتهد فى أن لا يراه مولاه حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا بتوزيع أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه إلى مسائه .

ويحسن فيما يرى الغزالى أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ، وأن يكون أول مايجرى على لسانه ذكر الله ، وأن لا يترك السواك : فإنه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسخطة للشيطان .

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالى بالحث على ما تدعو إليه الشريعة الإسلامية من الوضوء والغسل وما إليهما من أنواع الطهارة ، إنما هو دعوة صريحة إلى الحياة .

فإن الإسلام بفرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عندالاحتلام والوقاع ، إنما رفع عن الناس آصار البطالة والخمول .

ولا يعلم إلا الله ما كانت تصل إليه حالة الشرق لو لم ينتشر فيه الإسلام ، فإنه يعوض على أهله ما فات أكثرهم من سلامة الذوق ، إذ لايعرفون للنظافة قيمة ، ولايقيمون للطهارة وزناً . حتى لتجدمن العلماء من ينص على أن نية النظافة من قيمة الوضوء ، لأن الطهارة فى نظرهم عبادة آلية ، لاتتعلق بها الأغراض ، وسبحان من وهب العقول ! ! .

غير أننا لانوافق الغزالى فيما ذكر من آداب النوم ، إذ يحض المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت فى لحده ، وأن يتذكر أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ولعل الله يقبض روحه فى ليلته ، وأن ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه ... الخ .

وما كنت لأوافق الغزالى على ذلك ، لأنه يجب إقصاء فكرة الموت عن الأحياء فإن التفكير فى الموت مدعاة إلى الزهادة والجمود . وهو كذلك نقص فى العزائم ، وخمود فى القرائح .

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لانزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير فى رفعة الأقدار ، وسموّ النفوس ؟

وقد فصل الغزالى آداب المرء نحو نفسه فى أكثر كتبه فى الأخلاق . ولا عيب عليه غير الإفراط فى تحقير الدنيا ، وهوعيب فظيع ، فإن الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الأرزاق ! .

وهل كان الله عابثاً يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التى رميتم عشاقها بالإثم والفسوق ؟

٢

واجب المرء نحو إخوانه فى الدين

وضع الغزالى عدة آداب للرجل مع أخيه فى الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ،

والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن وجزء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى وإسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الغزالى وجوداً لغير المسلم ؟ وإلا فما رأيه فى معاملة من ليسوا بمسلمين ؟ .

وفى جواب هذا السؤال نذكر ما جاء فى إحدى فتاويه[1] من أن الذمى كالمسلم فيما يرجع إلى الإيذاء . لأن الشرع عصم دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الذمى والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وإن لم ينص على ذلك فى الإحياء .

وإلى القارىء خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحداً منهم بفعل أو قول .

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .

(٣) أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب عليه .

(٤) أن يحسن إلى كل من قدر على الإحسان إليه منهم ، بلا تمييز .

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه ، بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف .

(٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرىء بحسب طريقته : فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمى بالفقه ، والعيى بالبيان ، آذى وتأذى .

(٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان .

(٨) أن يكون مع الكافة مستبشراً طلق الوجه رفيقاً .

(٩) أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفى به .

(١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم إلا كما يحب أن يعاملوه .

(١١) أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته .

---

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدى

(١٢) أن يصلح ذات البين مهما وجد إلى ذلك سبيلا .

(١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد استشهد الغزالى بهذا الحديث البديع : (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته) .

(١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر .

(١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياماً بأخوة الإسلام .

(١٦) أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة :

(١٧) أن يجامل أخاه ويواسيه إذا بلى بشر .

(١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين .

ويرى القارىء فى هذه الحقوق شيئاً من التكرار . وهذا أيضاً يمثل وجهة نظر الغزالى فى الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة، ولا يزال بالمعنى يردده فى كتبه ، بل فى الكتاب الواحد حتى يرسخ فى نفس المستفيد .

٣

حقوق الجوار

ويرى الغزالى أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويروى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذى له

حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الإسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك) .

ويقول تعليقاً على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتى من الواجبات :

(١) أن يبدأ جاره بالسلام

(٢) وأن لا يطيل معه الكلام .

(٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى داره .

(٤) وأن يعوده فى المرض .

(٥) وأن يعزيه فى المصيبة ، ويقيم معه فى العزاء .

(٦) وأن يهنئه فى الفرح : ويظهر الشركة فى السرور معه .

(٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما .

(٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له .

(٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره .

(١٠) وأن لا يصب الماء فى ميزابه ، ولا يطرح التراب فى فنائه .

(١١) وأن لا يضيق طريقه إلى الدار .

(١٢) وأن ينعشه من صرعته إذا نابته نائبة .

(١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره فى غيبته .

(١٤) وأن يغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته .

(١٥) وأن يتلطف لولده فى كلمته .

(١٦) وأن يرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه .

يقول الغزالى : هذا إلى جملة الحقوق التى ذكرناها للمسلمين ، ولم يستثن المشرك فى جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص الذميين بهذه المساواة ، إذ كان إيذاء الحربى عنده غير حرام .

٤

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار . وكذلك يثبت حقه بالقرابة . وروى الغزالى فى هذا أن أسماء بنت أبى بكر قالت : « قدمت علىّ أمى ، فقلت يا رسول الله : إن أمى قدمت علىّ وهى مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم . وفى رواية : أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها » .

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق القرابة ما يثبت بأخوّة الإسلام وبالجوار من الحقوق .

٥

حقوق الوالدين

يقول الغزالى : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا فى حق الأخوّة ، فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وإن لم تجب فى الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم .

ويرى الغزالى أن ليس للإنسان أن يبادر بالحج وهو فرض إلا بإذن والديه ، لأن المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم إلا بإذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم إذ لم يكن فى البلد من يعلمه . وليته عمم هذا الحكم فى جميع العلوم الضرورية فى الحياة .

وينقل الغزالى عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة فى البر على الوالد .

٦

حقوق الأبناء

يجب على الوالد :

(١) أن يسمى ابنه اسماً حسناً .

(٢) وأن يؤدبه إذا بلغ ست سنين ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه .

(٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله .

(٤) وأن يسوى بين أولاده .

(٥) وأن يبدأ بالإناث إذا حمل لأولاده طرفة من السوق .

٧

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالى ما يأتى من الواجبات :

(١) أن لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار وهذا مطرد فى أجناس الأقوات . أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالأدوية ، والعقاقير ، والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهى إليه وإن كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت فى بعض الأحيان وإن كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر . ومن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجرى مجراه ؛ على أن احتكار الأطعمة جائز إذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط . وبقدر درجات الأضرار تتفاوت درجات الكراهة والتحريم .

وكان على الغزالى أن يبين حكم احتكار الأدوية إذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الأمراض . فقد تصبح الأدوية أهم من الأطعمة ، ويمسى احتكارها من عظائم الأمور[١] .

---

(١) ليس بمستعص على الإنسان أن يفهم ذلك من كلام الغزالى : إذ هو يدير كلامه على محور واحد هو الرفق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم

عبد الوهاب النجار

(٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها .

(٣) أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً .

(٤) أن لا يكتم فى وزنها ومقدارها شيئاً .

(٥) أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه .

(٦) أن لا يروِّج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، إذ يستضرُّ به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره . وهكذا دواليك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدرى فيكون آثماً بتقصيره فى تعلم ذلك العلم .

(٧) أن لا يغبن صاحبه بمالا يتغابن به فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب .

(٨) أن يحسن نيته فى ابتداء التجارة . فينوى بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد .

(٩) أن يقصد القيام فى تجارته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس .

(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، ففى الخبر : « لا يركب البحر إلا بحج أو عمرة أو غزو » .

هكذا يرى الغزالى . وهذه منه نزعة صوفية لا تأتلف مع واجب الرجل الأخلاق فى الحياة الإجتماعية . فللتاجر أن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك، وعليه أن يركب البحر فى التجارة ، وأن يسلك إلى الربح كل سبيل .والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة . ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر إلى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه . وإذا حملت إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة .

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويعد جوابه ليوم الحساب والعقاب .

(١٣) أن يقيل من يستقيله ، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع ، ولا ينبغى أن يكون سبب استضرار أخيه .

(١٤) أن يخص فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو فى الحال عازم على ألا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة .

(١٥) أن يحسن فى استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة .

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوه بعناية الغزالى بصالح الهيئة الاجتماعية ، فإن التاجر الذى يتأدب بهذه الآداب تمسى تجارته ولا شك ربحاً عاما للناس ، ويصبح خادماً لأهل بلده من حيث لا يعلمون .

هذا وجه الجمال فى هذه الآداب التى خص بها التجار وما أنكر أن فيها جانباً من الضعف بإثقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة ، والمستورة ، فى حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة فى سبيل الحياة ، ولكن الغزالى لا يعدل بالسلامة شيئاً والسعيد عنده من نجا بدينه ، وإن خسر دنياه .

٨

آداب المسافر

وضع الغزالى فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ، وعده من الحركة والمخالطة . وبين الباعث عليه من هرب أو طلب ، وأطال فى ذلك وأجاد .

نحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ورد ما عنده من الودائع ، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه .

(٢) أن يختار رفيقاً ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل الدين ، فإن المرء على دين خليله .

(٣) أن يودّع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء .

(٤) أن يرحل من المنزل بكرةً فإن الخير في البكور .

(٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار.

(٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشي منفرداً خارج القافلة ، فربما ينقطع . أو يغتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل .

(٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها في وجهها ، وأن يروّحها بالنزول عنها غدوةً وعشية .

(٨) أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ومقراضاً ، ومسواكا ومشطا ، وقارورة ، وركوة ، وحبلا .

(٩) أن ينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد في أن يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدباً ينتفع به .

(١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له ، وإذا زار أحد أساتذته في سفره ، فلا يقم عنده أكثر من يوم وليلة .

(١١) أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصاناً عما كان عليه في الحضر .

وأحب أن يتنبه القارىء إلى دقة هذا الأدب الأخير .

٨

حقوق المرأة

لا يرى الغزالي أن المرأة تساوي الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة . ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكها نفسه « أنه عكس القضية . وأطاع الشيطان لما قال : «ولآمرنهم فليغيرن خلق الله». إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً. وقد سمى الله

«الرجال قوامون على النساء» ، وسمى الزوج سيداً فقال : «وألفيا سيدها لدى الباب» .
فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً [١] » .

ولم يقتصر الغزالى على ذلك ، بل حكم على طبيعة المرأة حكما أقسى من الصخر ، فقد قال فى معرض الحديث عن أدب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا أعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام : (مثل المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب) .

وإليك جملة ما وضع الغزالى للمرأة من الحقوق :

أولا — على الرجل أن يحسن الخلق معها ، وأن يحتمل الأذى منها ، ترحماً عليها لقصور عقلها . ويقول الغزالى: «واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها » .

ثانياً — أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهى التى تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالى : « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق » وهذا تأكيد لرأيه فى طبيعة المرأة .

ثالثاً — الاعتدال فى الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن ، والتعنت وتجسس البواطن .

رابعاً — الإعتدال فى النفقة ، فلا ينبغى أن يقتر عليها فى الإنفاق ، ولا ينبغى أن يسرف ، ولا ينبغى ترك الحلوى بالكلية ، وينبغى أن يأمر الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن الزوج . ولا ينبغى أن يستأثر الرجل عن أهله بمأكول طيب ، فإن ذلك ينافى المعاشرة بالمعروف .

---

(١) إن النساء يغلب عليهن المزاج العصبي . فهن يتأثرن بالتافه من الأمور ويجعلن من الهفوة الصغيرة أمراً خطيراً ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة ويبنين علالى الشقاق على أوهن أساس . وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس، لأحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن فى البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخى الزوج وأخته ونحو ذلك من أم زوج وهكذا فهناك الشقاق الدائم والخصام الذى لا ينقضي . ولا دواء لذلك سوى أن يكون الزوج قاهر الحكم نافذ الكلمة مطاع الأمر . فإذا ضعف أو وهن فلا انقضاء لشقاء البيت .

عبد الوهاب النجار

خامساً — على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فإن لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم مادام الزوج لم يقصر فى تعليمها الفرائض — فان قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن تخرج لتعلم فضل إلا برضاه . وللرجل الحق فى أن لا يدخل عليها الرجال ، وأن يمنعها من الخروج إلى المساجد والأسواق .

وهنا نلفت النظر إلى أن الغزالى يقرر ويلح فى تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط هى التى يجوز لها عنده زيارة المساجد وإن خالف ذلك بعض الشيء ما كان على عهد رسول الله . ويكاد يجزم بأن النبي لو شاهد أهل عصره لشدد فى التضييق على المرأة .

سادساً — إذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل ، فإذا خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن ، والعدل واجب فى العطاء والمبيت ، وأما فى الحب والوقاع فهو تكليف بمالا يطاق .

سابعاً — إذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرها ، فان كان من جانبهما جميعاً ، أو من الرجل فلا بد من حكمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرها ، وليس للمرأة أن تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على إصلاحها كما يقول الغزالى .

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فالرجل أن يؤدبها ، ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغى أن يتدرج في تأديبها . فيقدم أولا الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فإن لم ينجح أولاها ظهره فى المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال ، فإن لم ينجح ذلك ضربها ضربا غير مبرح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظما ، ولا يدمى لها جسما ، ولا يضرب وجهها فإن ذلك منهى عنه .

ثامنا — أن ينظر الرجل فى حاجة امرأته إلى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه . وللغزالى فى هذا الموضوع كلام كله سذاجة : إذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوقاع ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى

يسمع أهل الدار صوته ! ! وما أدرى كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والأوراد ، وما إلى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعا — الطلاق مباح ، ولكنه إيذاء . ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه . ومهما آذت زوجها أو بذأت على أهله فهى جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . ويرى الغزالى أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فإذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . وعلى الزوج أن يتلطف فى التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف . وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والإمتاع ، وأن لا يُفشى سرّها لا فى الطلاق ولا عند النكاح .

ومما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالى لم يفكر فى المرأة إلا من حيث هى زوجة ، فلم يذكر شيئاً عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشىء من العلم أكثر من الفرائض ، وهى غاية بسيطة بالطبع ، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف . وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه فى طبيعة المرأة ، إذ كانت عنده فى مقام التابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح فى مقام المتبوع !

٩

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالى بهذه الحقوق فى صيانة المرأة ، بل حض الرجل على الرفق بها فى كل حال ، فذكر فى ص ١٢١ من كتابه « التبر المسبوك » أن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيما بها ، فليذكر أن المرأة لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه ، وهو قادر على ذلك وأنها ما دامت فى حباله لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهى تخافه ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق لأجلها

أحداً ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ، وأنها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضا وهو لا يغتم لها ولو ماتت .

وألاحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض أن يكون الرجل مسيطراً على المرأة ، وأنها كالحمل الوديع . ومن الواضح أن الرجل لا يكون دائما على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائما بهذه الوداعة : ولكن عذر الغزالى فى إطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ، فالرجل فى الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذى لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالى ، أن الرجل يملك رقبة المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف فى البيت بلا رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين .

١٠

واجبات المرأة

النكاح نوع رق — كما يقول الغزالى — فالزوجة رقيقة الزوج ، وعليها طاعته فى كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه . وإليك خلاصة ما عليها من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، ملازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها وإطلاعها على سطوح الجيران

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول .

(٣) وأن تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه ، لا فى نفسها ولا فى ماله .

(٤) وأن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فمختفية فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها .

(٥) وأن لا تتعرف إلى صديق بعلها فى حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه .

(٦) وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام ، غيرةً على نفسها وبعلها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله .

(٧) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها .

(٨) وأن تكون متنظفة فى نفسها مستعدة فى جميع الأحوال ليتمتع بها إن شاء .

(٩) وأن تشفق على أولادها .

(١٠) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد .

(١١) وأن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها .

(١٢) وأن لا تذهب إلى الحمام ، إلا إذا لم يكن فى البيت مستحم ، وكانت نفساء أو مريضة ، وإن دخلت فلا تدخل إلا بمئزر سابغ .

١١

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب فى تصور الغزالى للحياة ، وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد نتبين بذلك وجهة نظره فيما ينبغى أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ إلا لمثل ذلك كليات الصحافة فى العهد الحديث .

ويرى الغزالى أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بُعد الماء وقربه تحت الأرض .

(٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، فى الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم .

(٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم .

(٤) وأن يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين .

(٥) وأن يعرف الطب والأدوية .

(٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب .

(٧) وأن يعرف الشعر والقوافى .

(٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء .

(٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال !

(١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه .

(١١) وأن يظهر بشبا قلمه ما يجول فى نفسه .

(١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف .

(١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه .

وقد وضع الغزالى فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه القط من الصلابة ، وما ينبغى أن يمتاز به القرطاس من النساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من الجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لرأيهم إذ ذاك فيما ينبغى أن يكون عليه الكتاب .

١٢

واجبات الملوك

يتكلم الغزالى كثيراً عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر مالهم وما عليهم وتجد فى حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين إرشاد العامة ، وإرشاد الأمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم كتاباً خاصاً سماه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود إليه الآن .

ويستحسن الغزالى أن يقسم الملك نهاره إلى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وإنصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ،

وإنفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم ، والتزود من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور . وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك .

وينصح الغزالى للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج ، والنرد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فإذا فات عاد الربح خسرانا .

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الإقلال ، ولكن هذا ينافى حرص الغزالى وإصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا فى كتاب « التبر المسبوك » .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول : —

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطوها ، وما يكون من سعادته إذا أحسن ، ومن شقائه إذا أساء .

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فإنه عن ظلمهم مسئول .

(٣) أن لا يتكبر ، فإن التكبر داعية الغضب والانتقام .

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية فى كل ما يعرض عليه فمالا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين .

(٥) أن لا يشتغل بنوافل العبادة ، وببابه أحد من أرباب الحوائج .

(٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؛ بل يتعوّد القناعة فى جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة .

(٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق .

(٨) أن يجتهد فى أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع .

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع .

(١٠) أن يعين رعيته إذا وقعت فى ضائقة ، وأن ينفق عليها من خزائنه ،

إذا وقعت فى قحط أو غلاء ، لأن فى ذلك استبقاء لطاعتهم ، ودرءاً لمطامع المحتكرين .

والغزالى لا يستنكر قسوة الملك ، إذا لؤمت الرعية ، بل يدعو إلى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : « وسلطان هذا الزمان يجب أن تكون له أوفى سياسة ، وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين ، فإن زماننا هذا زمان ذوى الوقاحة والسفهاء ، وأهل القساوة والشحناء . وإذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفاً أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين »[١] .

والسياسة فى كلامه هذا معناها الحزم فى شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون .

١٣

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول — إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله بالعقوبة .

الثانى — إذا اتسعت حاله فى خدمته واستغنى ، فلا يطمع فى ماله وثروته .

الثالث — إذا سأله حاجة فلا يتوقف فى قضائها .

وينبغى أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول — أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه .

الثانى — أن لا يسمع فى حقه كلام مفسد .

الثالث — أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة الخزائن والولايات .

ويجب على الوزير :

أولا — أن يكون محباً للخير ، مبغضاً للشر .

---

(١) ص ٥٥ « التبر المسبوك »

ثانياً — أن يعين الملك على الشفقة بالرعية إذا رأى منه الميل لذلك .

ثالثاً — أن يرشده باللطف إذا رأى منه ميلا للظلم .

ويقول الغزالى فى نصح الملك الذى أهداه كتابه : « وينبغى أن تعلم أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغى أن تعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩ .

وهذه الواجبات التى وضعها للملوك والوزراء تعتبر فى الواقع مجملة بالنسبة لما يحتاجون إليه من شتى الآداب فى معاملة الرعية ، ومعاملة جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكم الشرع فى جملة هذه الآداب ؛ وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص الخلفاء والولاة ، وما أحسبه يخالفهم فى هذا الباب .

١٤

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الغزالى رأيه فى معاملة الظلمة من الأمراء والسلاطين ، فقد حتم على من يأخذ مالا منهم أن ينظر كيف وصل إليهم ، وأن يتأمل الصفة التى استحق بها الأخذ ، والمقدار الذى يأخذه ، وهل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق ؛ وبين أنه إذا لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض . وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الظالم على الإطلاق ، فإن لم يستطع فيأخذ ما يتأكد أنه حلال .

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور . ولا تجوز زيارة الملك الجائر إلا بعذرين : الأول أن يكون من جهتهم أمر إلزام ، لا أمر إكرام ، ويعلم الرجل أنه إن امتنع أوذى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الإجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية .

الثانى — أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم .

وإذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لابد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد . ثم تأخذ فى تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرىء عليه . وإرشاده إلى ما هو غافل عنه .

والأفضل فيما يرى الغزالى أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يرونه ! والأمر كذلك فى معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدمهم .

وللغزالى فى هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من القناطر والطرقات والمساجد والسقايات والأسواق . وأخص ما يلاحظ أنه إنما يدعو إلى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يفضى إلى فتنة أو اضطراب .

١٥

حقوق الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصداقة ، إلى غير ذلك مما تثمر الألفة والألفة — كما نص الغزالى — ثمرة حسن الخلق ، إذ يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التباغض ، والتحاسد ، والتدابر .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يكون للرجل أعـداء يبغضهم فى الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء يحبهم فى الله .

ولـكن الحب فى الله ، والبغض فى الله غامض ، ولـكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة إلى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، وفى المدرسة ، أو فى السوق ، أو على باب السلطان ، أو فى الأسفار ؛ وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو المراد . إذ لا ثواب ولا عقاب إلا على الأفعال الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . وهـذه الأمور لا يقصد بها الإنسان غيره إلا إذا أحبه . والذى يحب : إما أن يحب لذاته ، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود وذلك المقصود : إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها . وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى .

حب المرء لذاته ولجماله

يرى الغزالى أن الإنسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه فى حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة فى الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل فى هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال إذا لم يكن للمحب غرض خبيث ، فإن الجمال مستملح لذاته ، وإن قُدر فقدُ أصل الشهوة . والغزالى يضرب المثل لهذا بالنظر إلى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجارى ، والخضرة من غير غرض مذموم إذ تحب لعينها . وهذا الحب كما يقول الغزالى لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف بمدح ولا بذم .

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يحب الإنسان لينال من ذاته غير ذاته . كما يحب الرجل سلطاناً لإنتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده

والمتوسل إليه — كما يقول الغزالى — إن كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب فى الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه ، فهو أيضاً خارج عن الحب لله ، فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم .

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالى إلى مذموم ومباح ، فإن كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الأقران ، وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعية بولاية القضاء أو غيره ، كان الحب مذموماً . وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح .

الحب للمنافع الأخروية

وقد يحب الإنسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه فى الدنيا ، بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة ، كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة . وهذا من

جملة المحبين فى الله . ومثله من أحب زوجته لأنها آلة إلى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح .

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالى : ليس من شرط حب الله أن لا يحب فى العاجلة حظاً ألبتة . ويقول : إذا اجتمع فى قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا . فاجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا ، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين جميعاً فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال .

الدنيا خليقة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق إليه الغزالى حين قال : « وعلى الجملة ، فإذا لم يكن حب السعادة فى الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة والكفاية والكرامة فى الدنيا ، كيف يكون مناقضاً لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالا راهنة . فالحالة الراهنة لابد أن تكون مطلوبة . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذى احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . وإلى ما لا يضاد ، وهو الذى لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال .

«وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل فى جملة الحب لله » .

وإنما نوهنا بهذه الفقرة لأنها فى صوابها تناقض ما يردده الغزالى من احتقار الأغراض الدنيوية ، والإشادة بالحياة الأخروية مما يخيل إلى القارىء أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يحب الإنسان فى الله ولله . دون أن ينال منه شىء ، أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو غاية فى الدقة والغموض .

ميزان الحب

بين الغزالى أن المرء قد يحب لذاته ، وقد يحب لمقصود دنيوى أو أخروى ينال منه ، وقد يحب لله ، لا لغرض يقصد فى حال أو مآل .

ولكن ما هى دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟ وبأى ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالى ميزاناً هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود : وهو المال ! وانظر قوله : « ومن أحب مالكا أو شخصاً جميلا أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظاً إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال : —

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال :

فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله ، أو فى ثلثه ، أو فى عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك فى مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يملك لنفسه شيئاً » .

المال هو أدق موازين الحب فى هذا الوجود ، وقد أفصح عن ذلك الغزالى ، وإن سبقه قول جميل :

سليني مالى يابثين فإنما يُبَيِّنُ عند المال كل ضنين

ما للأخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالى للمحبة . لا نرانا فى حاجة إلى إجمال ما فصله من حقوق الأخوة ، ويكفى أن نذكر أنه يرى للأخ حقاً على أخيه : فى نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؛ ولكل حق من هذه الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوى عليه الصدور من حب قوى أو ضعيف .

حقوق الأخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالى فى حقوق الأخ المذنب ، فإنه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو فى الوقت نفسه كثير على عصر كالعصر الذى عاش فيه الغزالى ، فلسنا نجهل أن الناس كانوا إذ ذاك قليلى التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالريب والظنون .

يرى الغزالى أن الصداقة لحمة كلحمة النسب . والقريب ولا ينبغى أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبى فى عشيرته : « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ولم يقل إنى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ، ولحمة النسب . قال الغزالى « ومن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلةالقرابة ، فإذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد . ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقرالدين أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعى ، ولا يهمل ، بل لايزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به ، فالأخوة عِدة للنائبات ، وهذا من أشد النوائب » .

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : إن مقارف المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء . لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية إنما منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لأنه لم يتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، كما لا تسقط القرابة ، ومتى بقيت فقد بقى ما كان لها من الحقوق .

ويزيد الغزالى أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبته ، إذ كانت الصحبة داعية الرجوع إلى الحق ، والإقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافاة ، فقد تقوى فيه الإصرار والعناد .

وهذه عظة بالغة ، لأولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

١٦

البغض فى الله

يقول الغزالى : « كل من يحب فى الله لا بد أن يبغض فى الله ، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فإن عصاه لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده » ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة .

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله إما أن يكون مخالفا فى عقده أو فى عمله ، والمخالف فى العقد إما مبتدع أو كافر ، والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت ، إما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة : —

الأول — الكفر والكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والإرقاق ، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له .

الثانى — المبتدع الذى يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى . لأنه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمة . وإن كان مما لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لامحالة ، ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد . أما المبتدع الذى يدعو إلى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق وشره متعد ، فالاستحباب

فى إظهار بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتنفير الناس منه ، أشد .

الثالث — المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يخاف الاقتداء به ، فأمره أهون . والأولى أن لا يفاتح بالتغليظ والإهانة ، بل يتلطف به فى النصح ، فإن قلوب العوام سريعة التقلب .

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فأنواعه ثلاثة :

الأول — وهو أشدها ، ما يتضرر به الناس فى دنياهم ، كالظلم والغصب ، وشهادة الزور ، والغيبة . والنميمة ؛ وهذه معاص شديدة ، لأنها ترجع إلى إيذاء الخلق . وأصحاب هذه المعاصى ينقسمون إلى من يظلم فى الدماء ، وإلى من يظلم فى الأموال ، وإلى من يظلم فى الأعراض ، بعضها أشد من بعض ، والاستحباب فى إهانتهم ، والإعراض عنهم مؤكد جداً .

الثانى — ما يتضرر به الناس فى أخراهم لا فى دنياهم ، كعمل صاحب الماخور الذى يهيىء أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق ، وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه .

وأنا لا أفهم كيف يرى الغزالى أن هذا العمل لا يضر الناس فى دنياهم[(١)].

الثالث — عمل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمر ، أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه . والأمر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه إن صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف .

---

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدنيوية من الأمراض الفتاكة كالزهرى ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره إلى أكثر من الضرر الدينى لأنه هو الماثل أمامه

عبد الوهاب النجار

نتيجة

ويحسن بالقارىء أن يضم الحب فى الله ، والبغض فى الله ، إلى ما قرره الغزالى من وجوب الاحتساب ، فإن ضم هـذه الأبواب بعضها إلى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالى .

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح الأفراد ، فيهذب نفسه أولا ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس إلى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وبإخوانهم فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من بغض من العقيدة ، أو يظلم الناس . وقد فصل الغزالى ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه بكثير من الآيات والأحاديث والأخبار .

١٧

آداب الزواج

يسميها الغزالى آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لأن النكاح فى كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وإنما يقصد به العقد . ولكنا قلنا آداب الزواج ، مجاراة للعرف الحديث .

وقد وضع الغزالى عدة آداب للنكاح ، تعد فى الواقع ترغيبا فيه ، وهى فى جملتها من الآداب العادية . ويهمنى منها أدب واحد ، أصاب الغزالى فى الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش . فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هى مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن ، وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فأنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية

عظيم . وإنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها. وإلا فقد قال عليه السلام : (يوم من والٍ عادل أفضل من عبادة سبعين سنة . ثم قال : ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها فقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله . ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث: إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقد قال عليه السلام . «ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

ويقرر الغزالى بعد هذا أن فى الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسراً للغضب، وتحسيناً للخلق . ويذكرنى هذا الأدب بما يكرره سيدى الأستاذ الدكتور منصور فهمى فى رسائله من كلمة « غرم الحياة وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما فى الحياة من متاعب ، فى سبيل ما فيها من الطيبات . والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور . والشبان الذين ينفرون من الزواج إيثاراً للراحة ، إنما هم جبناء ، ضعفاء ، لا يصلحون للجلاد فى ميدان الحياة.

١٨

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالى فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس . لأن فى ذلك بيانا لرأيه فى احترام ما يلزم المرء من مختلف الحقوق . وقد بدأ الكلام فى هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عند أخيه مظلمة فى عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم) .

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله . ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله . لئلا يقارف بريائه معصية جديدة .

مظلمة المال

وإن كانت المظلمة فى المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر فى مصرفه .

فإن كان الحرام معلوم العين : من غصب ، أو وديعة ، أو غير ذلك ، فأمره سهل . وإن كان ملتبساً فلا يخلو أمره من أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، أو أن يكون فى أعيان متمايزة : كالعبيد والدور والثياب .

فإن كان فى المتماثلات ، أو كان شائعاً فى المال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها بالمرابحة ، وصدق فى بعضها ، أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فى الحبوب والدراهم والدنانير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فإن كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء .

وفى الأعيان المتمايزة : كالدور والعبيد ، يوزع القاضى الثمن بقدر النسبة . وإن كانت متفاوتة ، أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور مثلا ، وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويقدر التفاوت بالعرف .

صرف المال الحرام

فإذا أخرج الحرام فلا يخلو أمره :

(ا) إما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه . وإن كان غائباً فينتظر حضوره . وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

(ب) وإما أن يكون لمالك غير معين ميئوس منه لايدرى أمات عن وارث أم لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . فإن لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده إن كان فقيراً . ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة ، فإنه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؟ وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على ألف أو ألفين .

(ح) وإما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التى يشترك فى الانتفاع بها عامة المسلمين .

مظلمة النفس

وإن كانت المظلمة فى النفس ، كالقتل ، فينظر فى نوعه ، فإن كان خطأً فليسلم الدية ، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص وله أن يتعرف إلى ولىّ الدم ويحكمه فى روحه ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله . وقد تنبه الغزالى إلى أن هناك ذنوباً يجب أن تستر ، فلا يصح أن يظهر فيها الاستحلال ، لأن فى إظهاره جناية جديدة . والخروج من مثل هذه المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والإحسان الموصول إلى من أساء المرء إليه ، فإن فى الإحسان جبراً للإساءة ، وهو كل ما يستطيعه التائب فى مثل هذه الحال .

١٩

واجب الاحتساب

الحسبة والاحتساب فى عرف المسلمين عبارة عن الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله . لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، إذا قام به واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره . وإذ كانت القدرة شرطاً للحسبة فقد أصبحت على ذوى السلطان أوجب ، لأنهم أقدر من غيرهم . ومتى أقامت الحكومة محتسباً كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل إلى إنكاره ، والمعروف المتروك ليأمر بإقامته ، وكان لكل مسلم الحق فى أن يستعديه فيما يجب إنكاره .

ومن الفروق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وإن لم يحضره خصم مستعد ،

وليس للقاضي أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه . وأنه يجوز للمحتسب أن يستعمل القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضي غير فحص القضية بالأناة والوقار .

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، وأحكام المظالم ، فى الحكومات الإسلامية ، فلنكتف بهذا القدر ، تمهيداً لرأى الغزالى فى شروط الاحتساب .

شروط المحتسب

ولا يجب على امرىء فيما يرى الغزالى أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، إلا بالشروط الآتية :

أولا — أن يكون مكلفاً . فلا يجب على الصبى أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه .

ثانياً — أن يكون مؤمنا : ومفهوم أن الغزالى لا يعترف للجاحد بشىء حتى يصلح للإرشاد .

ثالثاً — أن يكون عدلا . ويناقش الغزالى هذا الشرط ، ويذكر أن الأنبياء قد اختلف فى عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ، فلو اشترطنا فى الإرشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصى لأغلق هذا الباب .

رابعاً — أن يكون مأذونا من الإمام والوالى . وقد ناقش الغزالى هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب بإذن الوالى بعد إطلاقه فى الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له . وقرر أنه يجب على المرء زجر العاصى أينما رآه ، وكيفما رآه .

خامساً — أن يكون قادراً . فليس على العاجز حسبة إلا بقلبه . ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروها يناله ، فذلك فى معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكرها وعلم أن إنكاره لا ينفع — وقد اختلفت

كلمة الغزالى فى هذه النقطة فى ص ٣٢٢ ج ٣ من الإحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها لا تفيد. وفى ص ١٥٣ ج ١ يقول فى النهى عن كشف العورة فى الحمام «فاما قوله: اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذراً، بل لا بد من الذكر، فلا يخلو قلب إمرىء عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالمعاصى. وذلك يؤثر فى تقبيح الأمر فى عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه».

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل: إن المكروه المتوقع ما حده الإنسان. فإن الإنسان قد يكره كلمة، وقد يكره ضربة، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه فى حقه بالغيبة، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى. وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان، أو يقدح فيه فى مجلس يتضرر بقدحه فيه، فما حد المكروه الذى يسقط الوجوب به؟

وأجاب الغزالى بأن الحسبة لا تسقط إلا بالمكروه الظاهر كمن يعلم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به، أو يعلم بأنه تنهب داره، ويخرب بيته، وتسلب ثيابه[1].

المنكر المنهى عنه

ولا ينهى عن شىء فيما يرى الغزالى إلا بالشروط الآتية:

أولا — أن يكون منكراً، أى محذور الوقوع فى الشرع. قال الغزالى « وإنما عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا، لأن المنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه. ثم قال: ولا تختص الحسبة بالكبائر، بل كشف العورة فى الحمام، والخلوة بالأجنبية، وإتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنه».

ثانياً — أن يكون المنكر موجوداً فى الحال، فلا حسبة على من فرغ من شرب الخمر، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب فى ليلته.

ثالثاً — أن يكون المنكر ظاهراً. فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه

(١) انظر ص ٣٢٣ ج ٢ إحياء

لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ما ستر الله ، ونسكر على من أبدى لنا صفحته .

رابعاً — أن يكون المنكر معلوماً بغير اجتهاد ، فكل ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالى لحرية الرأى والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم فليعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة، وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب .

قال الغزالى : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها »[1].

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس .

أنواع المنكرات

قسم الغزالى المنكرات إلى مكروهة ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم فى الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام .

---

(١) ص ٣٣٧ ج ٣ إحياء

ثم ذكر طائفة من المنكرات التى تجرى فى المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة . وآراؤه فى هذا الباب مسددة ، ترجع إلى الحرص على سلامة الناس فى دينهم ومعاشهم ، وإصلاح ذات بينهم . فمنها دعوته إلى منع ما يؤدى إلى تضييق الطرق واستضرار المارة ، ودعوته إلى منع الملاك من تحميل الدواب مالا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان . ودعوته إلى منع الإسراف فى الطعام والبناء . والذى يتأمل ماسرده الغزالى من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف فى نفوس الأفراد والجماعات .

درجات الاحتساب

للاحتساب درجات ، وهى :

(١) التعريف (٢) ثم النهى (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم إيقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود .

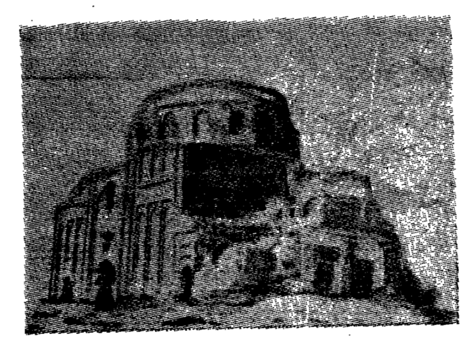
وفى الدرجة الأخيرة يقول الغزالى : (وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لايستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدى إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد . وقال آخرون : لايحتاج إلى الإذن . وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الأمر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر إلى ثوان وثوالث ، وقد ينتهى لامحالة إلى التضارب ، والتضارب يدعو إلى التعاون . فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه » ص ٣٣٦ ج ٢ .

إرشاد الأمراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الأمراء والسلاطين — فيما يرى الغزالى — إلا الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ . أما المنع بالقهر فليس لآحاد الرعية مع

السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتن ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر .

وأما التخشين فى القول ، كقوله : ياظالم ، يامن لايخاف الله ، وما يجرى مجراه ، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز ، وإن كان لايخاف إلا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب إليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد .



مسجد خرب فى طوس موطن الغزالى . ويظن الدكتور زويمر أنه بنى فى القرن الرابع

الباب الحادى عشر

فى تأثير الغزالى فى عصره

وما تلاه من العصور

أثر الغزالى فى عصره أثراً غير قليل : فشطر أهل العلم ، والولاة ، شطرين . أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال الفريقان يختصمان حتى طيرا شهرته فى جميع الآفاق .

وقد رأى الغزالى فى حياته من يقدسه ، ويقدمه على جميع العلماء ؛ ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الأقطار الإسلامية ، رمياً لها بالدعوة الخفية إلى الكفر والإلحاد !

١

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على كل مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته .

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة	وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم إلى مقامه	وينصر السنة فى كلامه
وان يكون جامعا لكل فن	وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون فى حديث قد روى	من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فرداً هو المشهورُ	قد نطق الحديث والجمهور

وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ومبعوث الثانية الشافعى ،

والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة الاسفراييني أو الصعلوكى أو الباقلانى .
ويتفقون على أن مبعوث المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك .

والخامس الحبر هو الغزالى وعده ما فيه من جدال[1]

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما ترتكز عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارىء أن الغزالى بذ معاصريه ، وأخملهم ، حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين ! .

٢

المنامات والأحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لغير واحد من المنامات المتشابهة فى تأييد الغزالى، ونشر فضله .

فهذا السبكى يذكر فى طبقاته أنه كان فى زمانه شخص يكره الغزالى ويذمه ويعيبه فى الديار المصرية ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجانبه ، والغزالى جالس بين يديه وهو يقول : يارسول الله هذا يتكلم فى ! وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا السياط ، وأمر به فضرب لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكى ويحكيه للناس (! ؟) .

ويذكر السبكى أيضا أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الإحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا فى بلاد المغرب ، فأمر بإحضار كل ما فيها من نسخ الإحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب إلى النواحى ، وشدد فى ذلك ، وتوعد من يخفى شيئاً منه ، فأحضر الناس ماعندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما

---

(١) راجع شرح الزبيدى ص ٢٦ ج ١

كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم فى المنام كأنه داخل من باب الجامع الذى تعود الدخول منه ، فرأى فى ركن المسجد نوراً ، وإذا بالنبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما جلوس ، والإمام أبو حامد قائم وبيده الإحياء فقال يارسول الله : هذا خصمى! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما إلى أن وصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الإحياء ، وقال : يارسول الله انظر فيه ، فإن كان بدعة مخالفاً لسنتك كما زعم ، تبت إلى الله تعالى ، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة إلى آخره ، ثم قال : إن هذا شىء حسن ، ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يارسول الله إنه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر . فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من ثيابه : وضربه حد المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يارسول الله ، إنما حصل ذلك منه اجتهاداً فى سنتك وتعظيما . فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريباً من الشهر متألماً من الضرب ، ثم سكن عنه الألم، ومكث إلى أن مات ، وأثر السياط على ظهره (؟ !) .

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدى رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالى ، وهو منام طويل نقله السبكى فى طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لى أن أقتصر على ماذكرت رغبة فى الإيجاز.

وأنا لا أتخذ من هذه الأحكام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء فى منامه صلةً قويةً بما يلهج به فى يقظته ؛ وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ماشاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء ، وسبحان من جلّ عن الشريك ! .

٣

تلامذة الغزالى وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم فى عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم فى علمهم ، وأدبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالى تأثيراً حسناً فى جمهور كبير من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدى ، منهم القاضى أبو نصر أحمد ابن عبد الله الخمقرى (نسبة إلى خمس قرى التى تعرف بسيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الإمام أبوالفتح أحمد بن على بن محمد بن برهان — بفتح الباء — ولد سنة ٤٧٦ وتوفى سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن إسماعيل بن القاسم الطوسى توفى سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النوقانى قتل فى مشهد على بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ فى واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت المصمودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالى . ومنهم أبو حامد محمد ابن عبد الملك بن محمد الجوزقانى الاسفرايينى . ومنهم أبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى حدث بكتاب « إلجام العوام» للغزالى عنه . ومنهم الإمام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، تفقه عليه وشرح كتابه « البسيط » .

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وإنما أنص هنا على أن تلامذة الغزالى أحدثوا أثراً كبيراً فى الحياة الإسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، إلا أثراً لقوتهم المعنوية ، وإيمانهم بما يدعون إليه . وأنص أيضاً على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه غالباً إلا بمؤلف الإحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الأصول ، وإنما صحبوه على أنه داع إلى الله ، ومرشد لمكارم الأخلاق .

٤

مؤلفاته وفتاويه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الإسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته

وفتاويه . فإنا نجد مثلا كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحاً كما قال الزبيدى ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبياً لكان معجزته الوجيز ! وممن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وأبو الثناء محمود بن أبى بكر الأرموى . والعماد أبو حامد محمد ابن يونس الأربلى ، وأبو الفتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم ابن محمد القزوينى الرافعى ، وقد اختصر النووى من شرح الرافعى كتابا سماه الروضة ، وخرج أحاديثه ابن اللقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنتقى . ولخصه أيضاً الحافظ ابن حجر ، وشرح الوجيز أيضاً البدر الزركشى ، والبدر بن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى .

ونجد أيضاً كتابه «الوسيط» فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن يحى النيسابورى شرحاً سماه « المحيط » فى ستة عشر مجلداً ، وشرحه نجم الدين أحمد بن على بن الرفعة فى ستين مجلداً وسماه « المطلب » وشرحه النجم القمولى وسماه « البحر المحيط » ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الإحياء .

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسى يمدح كتبه الأربعة فى الفقه :

هذّب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه « المستصفى » فى الأصول موضع عناية العلماء ، فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشبيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ . وشرحه أبو على الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغرناطى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ .

ونجد كتابه «تهافت الفلاسفة» قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتاباً فى نقده ، ومقام ابن رشد فى عالم الفلسفة غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وألف كتاباً فى التحكيم بين الغزالى وابن رشد بإشارة السلطان محمد الفاتح العثمانى . ووضع علاء الدين بن على

الطوسى كتاباً فى المحاكمة بين الغزالى وابن رشد سماه « الذخيرة » ومنه نسخة بدار الكتب المصرية نمرة ١٧٤ .

ونجد كتابه « قواعد العقائد » شرحه ركن الدين الاسترابادى ومحمد أمين بن صدر الدين الشروانى .

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضنون به على غير أهله) إلى الغزالى . وممن بحث ذلك السبكى وصاحب « تحفة الإرشاد » وصنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ كتاباً فى رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفى ما دس عليه .

وليست عناية العلماء بفتاويه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التى كان يعظ بها الناس فى بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد المتفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية) .

ولو رجعنا إلى ما ألف فى الوعظ والفقه فى الأعصر الأخيرة لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون إلى الغزالى فى أكثر الأبواب .

وقد أخبرنى صديق عبد القوى أفندى الحلبى أن من النادر أن تنشأ مكتبة فى أى قطر من الأقطار الإسلامية ، ولا تشتمل قائمتها على طائفة من كتب الغزالى فى الفقه والأخلاق .

(٥)

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته فى الفقه وبين تأثرهم بما كتب فى الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا أن الروح السائد فى ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ، لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالى إنما كان أثراً لإيمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيراً فى الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب فى الحساب والنجوم .

أضف إلى هذا أن الغزالى نفسه كان يُعنى بالفقه والتوحيد فى مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمة لعلم الأخلاق .

والذين عنوا بنقد كتبه إنما التفتوا أيضاً إلى الوجهة الأخلاقية ؛ فالقضاة منهم كانوا يرونه خطراً على الأخلاق ، لأنه يجانب الشريعة ، وهى فيما يرون أساس الأخلاق . والفلاسفة منهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلميهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتى على تلك القواعد بإذاعته وساوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا يحذرون .

٦

تأثير الإحياء

ولئن قالوا فى «الوجيز» ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريباً منه فى مؤلفاته فى الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فإن أبعد كتبه أثراً ، وأسيرها ذكراً ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه «إحياء علوم الدين» بلا جدال .

كتب الغزالى فى الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه إلا بمقدار ، فلم يثر فتنة . وكتب فى المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير الإبانة والإيضاح . وكتب فى الأصول ، ولكن بحيث لا يثير الخصومة ، ولا يهيج اللدد . وكتب فى الفلسفة . ولكنه لم يزد على أن تغنى ببلبلى معاصريه . وكتب فى التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة إلا قليلا ، فظل مسقور الحال .

وما كتب «الإحياء» حتى التفت الناس إليه من كل جانب ، وسار اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقاً إليه أو عتباً عليه ، أو بغضاً له ، أو رفقاً به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ، وهو حى يرزق . وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب يوضح فيه ما غمض فى الإحياء ، وهو « الإملاء على إشكالات الإحياء» ولكنه فى الواقع لم يزده إلا إشكالا إلى إشكال . فلج الناس فى المراء فوضع كتابه «المنهاج» على أن يكون موضع وفاق ، فكان فى الواقع أيضاً ضغثاً على إبالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التى كانت بين أنصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فإن أنصار الغزالى جميعاً صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعاً من علماء الشريعة . وأبعدهم غوراً فى النيل منه هم المتصدرون للفتيا والقضاء .

فبينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهذيان) نجد أبا الحسن الشاذلى يذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وقد باهى موسى وعيسى بالغزالى . وقال : أفى أمتيكما حبر كهذا ؟ فقالا . لا ! ونجد أبا العباس المرسى يشهد له بالصديقية العظمى ! وليت شعرى ما هيه؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهذيان وبين من يحلم بأن لا نظير له فى أمة موسى وعيسى عليهما السلام .

وقد قدمت لك شيئاً من المنامات المتعلقة به ، وبينت مالها من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن «الإحياء» فهى تارة تقع لناقدى ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمنتفعين به من علماء الإسلام .

والذين أحرقوا «الإحياء» لم يحرقوه لأنه كتاب هين ؛ والذين ألفوا الكتب فى نقده ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هين ؛ وإنما نقده هؤلاء ، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطر ، وليكن خطراً على الإسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنة ، وليكن كتلة زندقة وإلحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن .

وأشهر من نقد «الإحياء» الإمام أبو عبد الله المازرى المالكى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكى فى طبقاته ، فليرجع إليه من شاء ، ويتلخص نقد المازرى فى أن الغزالى غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ، وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الإشارات) ويتلخص رد السبكى فى رمى المازرى بالحسد والكيد للصوفية فى شخص الغزالى ، وممن نقده أبو الوليد الطرشوشى وتجد جملة من نقده فى الجزء الأول من شرح «الإحياء» للزبيدى . فأما الذين كتبوا فى فضل الإحياء فهم كثير :

منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه : « تعريف الأحياء ، بفضائل الإحياء » وفى أيدى الناس كتاب (لبعض الفضلاء) اسمه : «بغية القاصدين لفضائل إحياء علوم الدين »

وأطال السبكى فى مدحه حتى نقل عن بعض المحققين أنه قال : « لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى» ثم قال : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقلما ينظر فيه ناظر إلا ويتعظ به فى الحال .

ويدل على مبلغ تأثير «الإحياء» عناية العلماء به ، فإنا نجد الحافظ العراقى خرج أحاديثه فى كتابين : أحدهما كبير الحجم فى مجلدين ، وهو الذى صنفه فى سنة ٧٠١ ه‍ ثم اختصره فى مجلد «وسماه المغنى عن حمل الأسفار» . ثم أتى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلانى فاستدرك عليه ما فاته فى مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى كتاباً سماه : «تحفة الأحياء فيما فات من تخريج أحاديث الإحياء» وقد سبقت كلمتنا فيما نقل السبكى من الاحاديث الموضوعة .

وممن اختصر «الإحياء» أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ ه‍ وسماه «لباب الإحياء» وأحمد هذا هو أخو الغزالى . ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ ه‍ . ثم محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى ابن أبى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر ابن عثمان البلخى وسماه « عين العلم وزين الحلم »(انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) . واختصره عبد الوهاب بن على الخطيب المراغى وسماه «لباب الإحياء» واختصره الشمس محمد بن على بن جعفر العجلونى المشهور بالبلالى شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة ٨٢٠ ه‍

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : «منهاج القاصدين» ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ .

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من الصفحات ، ألفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى تحقيق كثير من مواطن الخلاف .

ولم يقف الأمر عند شرح الإحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه ، بل وضعت

الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى الإحياء ، وهى : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وممن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب : الشعرانى ، وعبد الكريم الجيلى ، ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ، وأحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى . ووضع ناصر الدين ابن المنير الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : «الضياء المتلالى ، فى تعقب الإحياء للغزالى» وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السهمودى رسالة تقع فى سبعة كراريس كما قال الزبيدى . وألف البرهان البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها « تهديم الأركان » وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها « تشييد الأركان » .

٧

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تتبعت العصور التى تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع بمؤلفاته ظاهراً كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف والأخلاق . ولقد رأيت من بينهم من هم يحفظ كتاب الإحياء عن ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يتقرب إلى الله بنسخ هذا الكتاب . وتجد فى ص ٦٩ ج ٣ من «خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر» مظهراً لأثر الغزالى فى ذلك العصر ، إذ تجد من العلماء من يتخذ ورداً من الإحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولولا خوف الإطالة لضربت للقارىء عشرات الأمثال .

وفى العصر الحاضر يدرس كتاب الإحياء فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب .

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائما بالانتفاع بكتاب الإحياء . وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالى بصورة الرجل الذى قد يخطىء وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضاً سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب «سبيل السعادة» الذى وضعه الأستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق صدره ، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء فى الأزهر مجرداً من آراء المفكرين فى نقده ، وتمييز غثه من ثمينه ، كانت السبب فى إفساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها إلى الطمع فى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

والأمل كبير فى أن يصل هذا الصوت إلى من بيدهم الأمر فى الازهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الاخلاق ، فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك المذاهب البالية ، التى يعولون عليها فى فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب . وسبحان من لوشاء لهدانا وإياهم سواء السبيل !

٨

عناية الأجانب بالغزالى

ومما يتصل بتأثير الغزالى فى الحياة العلمية ، عناية الأجانب به : فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسوية ، والانجليزية ، والألمانية . ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده الدكتور زويمر واحداً من أربعة ويقول : «كل باحث فى تاريخ الإسلام يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظماء . وهم محمد نبى المسلمين نفسه ، والبخارى ، والأشعرى ، والغزالى » .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية الشرقية ، وكتابه عن الغزالى من الكتب القيمة ؛ وتجد فيه من مظهر العناية بالغزالى ما كتبه عن قبره ، نقلا عن خطاب وصله من القس دونالدسن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالى ووجد فى إحدى زوايا الحجر كلمة (غزالى) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبو حامد . وهذا هو الرسم الذى أرسله قس دونالدسن إلى الدكتور زويمر عن قبر الغزالى .



ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالى كتاب Carra de Vaux والمسيو « كارادى فو » هذا رجل خبير بالحياة الإسلامية ، وله كتاب عن ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن المدارس الفلسفية عند المسلمين ، وإنى لآسف حين أقرر أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين إذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفا وضع كتابا عن الغزالى ، وانى ملوم فى أن غفلت عن هذا الكتاب ، فإن الطريقة التى جرى عليها المسيو كازانوفا فى كتابه « محمد ونهاية العالم » طريقة تغرى الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضاً على أن الظروف لاتسمح بأن أترجم شيئاً من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمى عنده فوق كل مقام . وإنما أدعو من يحب الاطلاع إلى مراجعة Mohamet et la fin de monde فإن فيه من المباحث ماىواتى شهوات العقول ، وللعقول شهوات ! !

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع إلى المقدمة التي وضعها المسيو Lucien gautier حين نقل « الدرة

الفاخرة» إلى الفرنسوية traité d'éschatologie musulemane ويحسن الإطلاع على الجزء التاسع من المجموعة السابعة من Journal asiatique وفى مقدور القارىء أن يرجع إلى encyclopédie de l'islam 20 livre إذا أراد أن يعرف ما كتب عن الغزالى بالفرنسوية والإنجليزية والألمانية . وقد أخبرنى حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه أعلم أن فى اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالى . وأحسب أن السبيل إليها ممهد لمن شاء .

وأحب أن يعفينى القارىء من تفصيل ما أعرف عن نظر المستشرقين إلى الغزالى ومذاهبه الصوفية ، فإنى مضطر إلى الاكتفاء بإرشاده إلى طريق الاطلاع .

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالى فى الشرق والغرب ، وتغلغله فى أعماق الحيلة العلمية ، فإن الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه فى الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة .

ألا إن الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحياة من قوانين ، كذلك تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما فى الحياة من عناصر وأصول .

وهكذا انهزم الغزالى حين نازل الحياة !

حرم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت فى طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير !

وحرم الغناء . ولكن مشت الأذواق فى سبيلها بقوة ، ولم تزل ظامئة إلى الأنغام والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عللاً معقولة ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو إلى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحببنا تهاويل الصور ، ولم نفكر فى الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو إلى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف أفندى البنا وابراهيم أفندى القبانى والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر فى الخمر ، ولا فى مجالس الخمر ! !

ليست الأخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التي تبنى بها الأمم ليست مايعرفه الغزالي من التواضع ، والتوكل ، والخمول ، وإنما هي فهم قوانين الحياة وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندى غاية الأخلاق .

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية في سبيل الحياة . فقد يكون الخمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحيانا من أسباب الخمول .

ولا قيمة للحياة بغير القوة . فيجب أن تكون الأخلاق بابا إلى الحياة القوية . وطالما شككت في قوله عليه السلام : «اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً . واحشرني في زمرة المساكين » !

الباب الثاني عشر

فى أنصار الغزالى وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مثارها الفرق بين الفقه والتصوف ، وأن أنصار الغزالى كانوا فى الأغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا فى الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن نقفك على ترجمة طائفة من أنصار الغزالى وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئاً مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالى أو أيدوه ، لتمهد لك السبيل إلى فهم الحركة العقلية التى أوجدتها مؤلفات الغزالى ، وسبيلنا الإيجاز فى هذا الباب ، لأن المقام لايسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد فى قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس فى صغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الأقاويل . توفى رحمه الله بمراكش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق الأمرّين من نفى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذى يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى مالقيه فى زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يحتضرون ، وأن دولتهم كانت تمشى إلى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لايصلحون مطلقاً للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل .

وخصومة ابن رشد للغزالى تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالى كتاباً سماه « تهافت الفلاسفة » ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، والذى يهمنى من معارضة ابن رشد للغزالى إنما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد كان الغزالى يراهما من الكفار .

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوثه التى كانت مثار الخلاف ، إنما كان الاختلاف فيها بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فإن هنالك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة بين الطرفين . وقد اتفقوا فى الطرفين واختلفوا فى الواسطة . أما الطرف الأول فهو موجود وجد عن شىء ومن شىء ، أى عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شىء ولا عن شىء ولا تقدمه زمان . وهذا اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شىء أى عن فاعل ، وهذا هو العالم بأسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسلمون بأن الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل . يقول ابن رشد : « فهذا الوجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً . ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً . وهو فى الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فإن الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة » .

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل إلى كلام هو فى الواقع صفع لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من الأمور الهينة التى يصدرون عنها الفتوى كأنها مسئلة طلاق ! ! وإليك ما يقول فى ذلك :

« مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر فى الآيات الواردة فى الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة . وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعنى غير منقطع . وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) . يقتضى بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان ، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركة الفلك . وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) . يقتضى بظاهره وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) . يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شىء » .

وهناك صفحة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد . ذلك بأن هؤلاء القوم يختلقون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ !

وإليك ما يقول ابن رشد فى ذلك :

« والمتكلمون ليسوا فى قولهم أيضاً فى العالم على ظاهر الشرع ، بل متأولون ، فإنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين فان التصديق بالشىء من قبل الدليل القائم فى النفس هو شىء اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وأن أخطأ فله أجر » .

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة بل أسرفوا فى تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الإسلام ،

وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والإيمان . وفى كتاب « فيصل التفرقة » للغزالى مظهر لهذه الآراء الفاسدة التى ظنها الأولون حقائق ، وهى فى الواقع أباطيل .

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد فى الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا فى غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين .

ابن تيمية

ولد بحرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ . وقدم به والده إلى دمشق فى سنة ٦٦٧ هـ حين استولى التتار على حران . وقد تلقى عن والده الفقه والأصول ، ثم عنى بالنظر فى الحساب والجبر والفلسفة ، وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين . وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة مصنف . منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح فى الرد على النصارى وإثبات المعاد والرد على ابن سينا واثبات الصفات والرد على الإمامية ... الخ .

وقال الحافظ ابن كثير : وفى رجب سنة ٧٠٤ هـ راح الشيخ تقى الدين ابن تيميه إلى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . وبهذا أمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه فى ابن عربى وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم يبال بمن عاداه . ولم يصلوا إليه بمكروه . وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث لا بمصر ولا بالشام .

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابةٌ   لم يطعن الأعــداء فىَّ ويقدحوا

كالليث لما هيب خط له الزبى [١]   وعوت لهيبته الكلاب النبح
يرموننى شزر العيون لأننى   غلست فى طلب العلاء وصبحوا

وقد توفى رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨هـ وهو فى السجن . فأخرج إلى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال بمائتى ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفاً . ورثاه كثير من العلماء منهم ابن الوردى:

والذى يعود إلى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عنى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيراً عن العقلية الإسلامية فى القرن الثامن ، ويكفى أن نلفت القارىء إلى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فإن لذلك معانى لا تعزب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد .

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الإسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة . فإنك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر . وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم [٢] » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول .

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالى لأنه كتب فصولا كثيرة فى تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى أخريات أيامه ، وفى ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه »

---

(١) الزبى جمع زبية وهى الحفرة   (٢) انظر مقدمة رفع الملام

وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فإن الغزالى كان متقلباً فى آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفى ، وتارة فيلسوف .

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولى على النبى ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبى . فإنا نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبى على الفيلسوف ويسمى طريقه طريق العقلاء ، ويذم الفارابى لأنه يفضل الفيلسوف على النبى ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم محيي الدين بن عربى لأنه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى النبى ، لأن الملك على أصلهم هو الخال الذى فى نفس النبى ، والنبى فى زعمهم يأخذ عن ذلك الخال ، والخال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبى لأنه لا يحتاج إلى وسيط .

وأحب أن أنبه القارىء إلى أنى إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الإسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول .

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد فى سنة ٦٩١ وتوفى سنة ٥٧١ هـ . لقى فى حياته ضروباً من الشدة بسبب آرائه الحرة . فقد حبس مدة لإنكاره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل . وقد حبس مع ابن تيمية فى المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أستاذه . وله عدة تصانيف . منها « مدارج السالكين » ، و « شرح أسماء الكتاب العزيز »، ونقد المنقول، «والمحك المميز بين المردود والمقبول»، و «أعلام الموقعين»... الخ .

وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالى ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الإحياء ، فلا نعود إليها الآن .

وأكرر ما قلته من أننى أوجز كل الإيجاز فى هذا الباب . فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هى غاية فى الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون فى الاحتياط ، لأن العالم الإسلامى كان يضطهد الفلاسفة إذ ذاك . ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب فى الفلسفة الإسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفذاذ آصار الخمول .

السبكى

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ .
والسبكى هذا من كبار المؤلفين . وكتابه « جمع الجوامع » فى الأصول يدل على كده وكدحه فى سبيل العلم ، وإن كان غاية فى اللبس والغموض . وكتابه « طبقات الشافعية الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيب السبكى يرجع إلى ضعفه فى النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التى اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير .

ويعتبر السبكى من أنصار الغزالى ، وقد كتب عنه فى الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الإحياء لكفى !! وما أريد أن أطيل فى الكلام عن السبكى ، فقد عرضنا له عدة مرات .

الزبيدى

هو محمد بن محمد الحسينى الزبيدى . وهو من علماء القرن الثانى عشر ، وقد وضع شرحاً مطولا للإحياء فى عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ . وفى هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالى .

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف ، لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل . من ذلك قوله فى تأييد ما يراه الغزالى من أن الزواج ميل إلى الدنيا :

« وأما كون التزويج من جملة الميل إلى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه فى الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل إلا بالوقوع فى الآفات التى كان عنها بمعزل أيام عزوبته ، لا سيما إن كان متجرداً عن القيام بالأسباب التى تجلب له أمر معاشه فإنه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن إليه بلقمة أو خرقة أو غيرها فأبغض الخلق إليه من يذمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن إليه » .

وهذا كلام غير مفهوم فى الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعاً عن رأى يرى الناس أنه غير صواب .

الباب الثالث عشر

فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين

هذا باب إذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالى أشباها كثيرة ، فى الفلسفة الحديثة ، وتحملنى الرغبة فى الإيجاز على الاكتفاء بأهم وجوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبى أن أدل القارىء على كيفية السير فى هذا الطريق .

١

الغزالى وديكارت descartes

أقرب الفلاسفة شبهاً بالغزالى هو « ديكارت » لأنه ارتاب كما ارتاب الغزالى ، وبقى فى شكه وارتيابه زمناً غير قليل .

ولد «ديكارت» فى لاهاى سنة ١٥٩٦م أى بعد الغزالى بنحو ٥٣٠ سنة . تلقى العلم فى مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال لعهده ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ماوقع فى يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل إلى باريس فى السادسة عشرة من عمره ، وتطوع فى الجندية ، وعمل عدة سياحات فى ألمانيا ، والسويد ، والدانمارك ، ثم استقر فى هولنده ، حيث رأى الاقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا إذ ذاك .

وبعد أن أقام فى هولنده عشرين سنة ، مكباً على وضع مذهبه ، دعته كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، فقضى نحبه فى سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة فى ستوكهلم ، ثم حملت جثته إلى فرنسا فى سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة saint-étienne .

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت فى نظر مؤرخى الآداب الفرنسوية أول رجل عبر عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيس لغة فلسفة ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية . وأهم مايعنينا من مؤلفاته .

أولا — ıègles pouı la direction de l'éprit

ثانياً — discours de la méthode

ثالثاً — méditations métaphysiques

رابعاً — les principes de la philosophie

خامساً — les passions de l'âme

فى هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية . فليرجع إليها من شاء ، فإنه لايوجد عنه شىء مقنع بالعربية .

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالى حين رأى صبيان النصارى لانشوء لهم إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع التقليد ، ورأى الناس فى الأكثر إما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، وإما أن يكونوا أقوياء فيسرعوا إلى الحكم ثقةً بقوتهم ، فإذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون إلى سواء السبيل .

ومما حمل ديكارت على الشك : ما رآه فى أسفاره من اختلاف العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية ، فى التفرقة بين أخلاق الشعوب .

وأهم ما تنبه له فى رحلاته ، الشك فى قيمة الرأى العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات . لأن إجماع الأمة على رأى ، لا يدل على أنه رأى الأمة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حملت عليه الأمة لسبب من الأسباب .

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتياب ، إذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق إلا وقد قال به فيلسوف .

ولكن ديكارت كان فى ارتيابه أصرح من الغزالى . فبينما نجد الغزالى يحدثنا بأنه دام قريباً من شهرين على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لابحكم النطق والمقال » أى أنه لم يكاشف الناس بشكه إلاحين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه حين ظنها حقة ، وبوجوب التخلى مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديداً على أساس جديد .

ونرى الغزالى شك فى المحسوسات ، لأنه ينظر إلى الظل فيراه واقفاً لايتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، أنه يتحرك ولكن بالتدريج . ثم نراه هم بالشك فى العقليات ، لأنه يعتقد فى النوم أموراً ، ويتخيل أحوالا يعتقد لها ثباتا واستقراراً ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك ، وقد يمكن أن يطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التى سلم بأنها أثبت من غيرها وأصح ، إنما كان اعتمد فى صحتها وثباتها على الحواس ، وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة — وهو كذلك يرى فى نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو فى كليهما مضلل مخدوع ؟ ! .

الفرق بين الغزالى وديكارت

الفرق عظيم جداً بين الغزالى وديكارت ، فإن الغزالى خرج من شكه بطريقة لاتصل بأحد إلى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لايعرفه العلم ، حتى يضمه إلى ماالديه من أصول . والغزالى نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن

« الشرح » ومعناه فى قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال : نور يقذفه الله فى القلب فيشرح به الصدر ، فقيل وما علامته ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود . يقول الغزالى : وهو الذى قال صلى الله عليه وسلم فيه (إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ! ! .

وما دام الغزالى لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام » كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك . وهذا يناقض كل المناقضة مافعله ديكارت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالى سببا لجمود الفلسفة فى الشرق كما كان « ديكارت » سببا لنهوضها فى الغرب .

أسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما فى بلاده من عادات وقوانين ، بل راى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولا واعتدالا عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينة وسكون .

ويقول بول جانيه paul Janet إن ديكارت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن إلى الارتياب كما فعل مونتينى montaigne بل رأى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول إن الغزالى انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن إلى الارتياب كما فعل مونتينى ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به «ديكارت» هو الدعوة إلى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى تنطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب إلى الحقيقة من التعقلات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن نحسن التفكير ، لا أن نعرف كيف فكر الناس . والبناء الذى قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فإن وحدة الذوق من موجبات الجمال .

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد .
والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضي ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال .

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولا — لا يصح قبول شيء على أنه حق ، مالم يعرف (ماهو) بغاية الوضوح .

ثانياً — تقسم كل مسألة صعبة إلى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون إدراكها سهل المنال .

ثالثا — ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول إلى الموضوعات المركبة .

رابعاً — فرض نظام فى الموضوعات التى لا يسبق بعضها بعضاً فى الطبع .

يقول« بول جانيه » : « ولهذه القواعد الأربع فى ذهن ديكارت معنى جد محدود .
والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ، فإن إغفال كل سلطة ، وإقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان فى أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة[1] .
ومن جانب آخر ينبغى أن نفهم كلمة (وضوح) فإن كل ما نعتقده بقوة ليس واضحاً ، ولأجل وضوحه ينبغى أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الأفكار بوضوح وتمييز ، فإن مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هى التى تولد من أعماق العقل واضحة متميزة . وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، إذ كل واضح معقول » .

والجارحة التى تدرك الحقيقة مباشرة هى البصيرة **intuition** ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحكام الحواس والخيال ، وإنما يريد بها إدراك العقل السليم اليقظ : الإدراك السهل الواضح الذى لا يتطرق إليه أى شك ، الإدراك الحازم الذى يولد فقط من أضواء العقل .

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل إنسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ،

(١) بدعة : هى الكلمة التى اخترناها لترجمة كلمة **nouveauté** لأنها أقرب إلى المراد .

وأنه يفكر. ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن ٢ + ٢ = ٤ كما أن ٣ + ١ = ٤ لأن هذه الأحكام مدركة بغاية الوضوح والجلاء .

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحاً حينئذ ؟ قد لايثبت إلا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك انساناً شك ، وأن هذا الإنسان لا محالة موجود وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة Je pense, donc Je suis أنا أفكر ، فأنا إذن موجود . ولا بأس فيما يرى ديكارت أن يُغَشّ الإنسان ويُخدع ، فإن هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هي عليه ، ولا ينافي أنه كائن موجود . ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال .

وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لان القاعدة عنده أنه لايصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء .

ولفلسفة «ديكارت» كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا إليه في مؤلف خاص .

٢

الغزالي وبسكال pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه إلى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عني بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستنباط . وقد شغف بسكال بالرياضة ، وألف فيها وهو يافع . ثم مال إلى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حمل عليها بضعف صحته . واضطراره إلى حياة العزلة والانفراد .

واشتهر بسكال بكتابه «الأفكار» pensées وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه lettres provinciales يمثل رأيه فى حياة القسيسين والرهبان .

ووجه الشبه بين الغزالى وبسكال هو أن كلا منهما ابتدأ حياته بقوة قهارة ، ثم انتهت به صحته إلى الرضا بالخمول فى ظلال التنسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالى على كل علم ، وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالا فى ضلال ! !

وكذلك ابتدأ بسكال حياته بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمس لنصرة العقل ، ومحاربة الوساوس القديمة . حتى لنجده يدافع عن الشهوات الكبيرة التى توجد الأعمال العظيمة ، كالحب والطمع . وذلك فى رسالته discours sur les passions de l'amour ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم واضطر إلى العزلة فى port-royal واختار الفلسفة الصوفية التى لخصها فى محادثته مع مسيو دى ساسى كما قال بول جانيه ، ثم عول أخيراً على الاكتفاء بالإنجيل .

ومما يقرب بسكال من الغزالى شكه فى قوة الطبيعة الإنسانية ، فهو يرى أن الإنسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لا يزول إلا بعناية الله . وليس هناك شىء يهدى الإنسان إلى الحقيقة ، بل كل شىء يخدعه . ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فإن كلا منهما يخدع صاحبه ، والناس يدعو بعضهم بعضا إلى الخداع : فهم يتبادلون المدح لعلمهم فيما بينهم بكراهة الحقيقة التى تنافى المديح ، وكذلك لا يتكلم امرؤ فى حضرتك كما يتكلم فى مغيبك ، فالإنسان فى نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق .

وقد بالغ بسكال فى احتقار العقل . ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتج أبداً إلى العقل ! ! ويتهم بسكال عقله باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتى مطلقا من ناحية العقل ، وإنما يأتى من شعور القلب ، ومن هداية الله ؛ ويجوز أن يأتى الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة ! ! وهذا بالطبع إسراف .

٣

الغزالى وهوبس hobbes

ولد هوبس فى انجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل إلى باريس فى سن الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا مرة ثانية ، وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف « جسندى » صاحب الفضل على « موليير » و « فولتير » .
ثم مات فى انجلترا سنة ١٦٧٩ .

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه la narure humaine وكتابه leviarhan أو la matière, la forme et l'autorité du gouvernement وفى هـذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والإحساس عنده ليس إلا حركة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة توجد الإرادة . فليست الإرادة إذاً إلا رغبة مُسيطرة . وهوبس لا يعرف باعثاً للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست إلا صوراً لحب الذات .

وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعى contrat socia التى عنى بها جان جاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الإنسان مفطور على الأثرة والشره ، وأن جميع أعماله إنما هى سلم إلى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى فى الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا إلى السلامة من شر الأقوياء غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثل فى الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التى كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه إلا واجب واحد هو : هو حفظ الأمن .

ويرى هوبس تأييداً لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومروق .

ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعى تأييد الملوكية ، ولا كذلك روسو حين دافع عن هذه النظرية فإنه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة

نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها بأنفسهم اضطروا إلى أن يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الأجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل فى الملك كما يرى هوبس ، وإنما تمثل فى شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريد .

إلى هنا لا يرى القارئ أى تناسب بين هوبس وبين الغزالى والواقع أن الجمع بينهما بعيد لأن الغزالى رجل تضحية وإيثار ، والخير عنده يرجع فى الأكثر إلى نفع الناس ، فى حين أن هوبس يرى الخير فى أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه . ولكنى رأيت بعد البحث أنهما يتفقان فى تكييف وجهة الطبيعة الإنسانية ، وإن اختلفا فى غاية الأخلاق ، فإذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهراً للأثرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس إلا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الأخلاقية ليست إلا سعياً فى سبيل نفعه ، فكذلك الغزالى يتهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الذات .

والغزالى يسيء الظن بالطبيعة الإنسانية ، ويرى العمل فى الأغلب لا يراد به إلا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الإنسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص إلى أن هناك رياء « هو أخفى من دبيب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص فى عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء خفى ، فلولا التفات القلب إلى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس .

والفرق بين الغزالى وهوبس ، يرجع إلى أن هوبس يريد أن يجعل وجهة الطبيعة الإنسانية أساساً للأخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولكن الغزالى يرى أن الخير لا يكون إلا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لأن وجهة الغزالى وجهة إسلامية ، لا ضرر فيها ولا ضرار .

٤

الغزالى وبوتلير butler

«بوتلير» هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٦٩٢ وتوفى سنة ١٧٥٢ وهو يعوّل أكثر من الغزالى على الفطرة الإنسانية وعنده أن المرء يستطيع بنفسه أن يدرك ما فى عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وإن لم يعلم شيئاً من المباحث الأخلاقية . ويرى أنه لا شىء يدعونا إلى طاعة قانون الأخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقا بين السريرة التى تحتم طاعة الأخلاق وبين حب النفس ما دمنا نفهم سعادتنا الحقيقية فإن الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالى بعض الاتفاق ، لأن وجهة الغزالى إسلامية ، والإسلام يرى المنفعة فى الواجب وإن كان لا يرى الواجب فى المنفعة ، فإن هذا شىء قد يكون وقد لا يكون . إلا إن أردنا ما هو نافع فى الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالأمور الأخروية ، ويرى اتفاقهما فى الأمور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود .

وأجل ما فى بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة فى حين أن الغزالى راها ضروباً من التكاليف .

٥

الغزالى وكارليل karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ فى قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلاندة من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادىء العلم فى قريته . ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره . وفى التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة أنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى . وفى سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم . وذهب إلى ادنبرج ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله إلى تعلم الألمانية التي كانت سببا لذيوع شهرته . وتوفى سنة ١٨٨١ .

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات . حتى

لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها فى رأيه ليست إلا إفراطا فى العجب من الشىء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئاً إلا لأنه إله ، أو رمز إلى إله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذى ترجمه الأستاذ محمد السباعى . وفى هذا الكتاب فصل ممتع عن النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه . كان سببا فى تغيير وجهة أنظار الأجانب نحو الإسلام . ومن كلامه فى ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور . وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق . فوا أسفاه اما أسوأ مثل هذا الزعم . وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء والمرحمة ! ؟ » .

وقد دافع كارليل عن الإسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة ، واستعمال السيف ، وبين أن المسيحية نفسها لجأت إلى القوة حين لم ينفع التسامح . ورد على من زعموا أن القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين أن سبب هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحلاوته . وعارض من نسبوا إلى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ، فإن العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات .

الكفر والإيمان

يتفق الغزالى وكارليل فى أن كلاً منهما مؤمن ثابت اليقين ، ويختلفان فى فهم السريرة الإنسانية ، وفى نتيجة التفكير . فالغزالى لا يعترف للضمير بالصلاحية للحكم ، وإنما الشرع هو الفيصل فى الحسن والقبح ، فما حسّنه الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح . ولكن كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدى ، وهو جزء من الطبيعة الإنسانية ، فهو قوة غريزية لا تحتاج فى كسبها إلى شرائع ولا قوانين .

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الإلحاد والتفكير يجتمعان فى قلب رجل واحد . والإخلاص عنده هو الأساس . ومن كلامه : « يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الأحيان ديناً صحيحاً فى اعتقاد أهلها . فلنوقن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الإيمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس ، أيقاظاً قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم فى حال من الأحوال . ولنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لآمنا بما كانوا يؤمنون به ، ولكنا وإياهم سواسية فى سائر الأشياء » .

ويتلخص رأى كارليل فى أن كل دين فيه عنصر من الحق ، والوثنية عنده ليست إلا رموزاً شعرية ، وتمثيلا بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى إنما هو رمز وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو فى المشاعر والأفكار . والفرق بيننا وبين الوثنيين يرجع إلى الشكل أكثر مما يرجع إلى الجوهر ، لأن كلا منا يرى التفكير فى ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو أغرمنا بالكون كما أغرم الوثنيون به لرأينا الله فى كل نجم ، بل فى كل زهرة .

رأى الغزالى فى الاجتهاد

لايمكن لامرىء أن يكفر ، فى نظر كارليل ، مادام مخلصاً فى عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالى يرى أن الاجتهاد له حد محدود والمختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان فكل مخطىء آثم وكل آثم مخطىء ،

ومن انتفى عنه الإثم انتفى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات إلى ظنية وقطعية : ولا إثم فى الظنيات إذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنـده ثلاثة أقسام : كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالـكلامية العقليات المحضة ، والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم . ويدخل فى هذا القسم حدوث العالم ، وإثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق الأعمال ، وإرادة الـكائنات ، وجميع ما الـكلام فيه مع المعتزلة والخوارج والروافض والمبتدعة. فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد، ومن أخطأه فهو آثم فإن أخطأ فيما يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله فهو كافر . وإن أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما فى مسألة الرؤية وخلق الأعمال وإرادة الـكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق وضل، ومخطىء من حيث أخطأ الحق المتيقن، ومبتدع من حيث قال قولا مخالفا للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الـكفر . ويعنى بالأصولية كون الإجماع حجة ، وكون القياس حجة ، وكون خبر الواحد حجة ... الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطىء آثم . والفقهيات بعضها يـكفر المرء بإنـكاره ، وبعضها يأثم بجحوده ، فإنـكار تحريم الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وإنـكار الفقهيات المعلومة بالإجماع خطأ وإثم .

تحرير هذه المسألة

الأصل فى الحـكم الأخلاقى أن يتبع غرض العامل من عمله : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالعمل الذى أريد به الخير ، هو خير : وإن كان ضاراً فى ذاته . والعمل الذى أريد به الشر ، هو شر : وإن كان نافعاً فى ذاته . ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف ما فى العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد فى البحث فقد أمن المسئولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تتبعت ما كتبه علماء المسلمين فى هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون يهتدون . وسبب ضلالهم يرجع إلى أنهم خلطوا بين الوجهة الأخلاقية ، والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى يقتل مسلماً خطأ مدين من الوجهة

القضائية ولكنه برىء من الوجهة الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق فى اعتماده على الوجهة القضائية ، لأن فيها استئصالا للجرائم ، ولأن القاضى متى عذر كل من ادعى الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين .

والذى يدلك على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتفى بإيمان المقلد . مع أن الإيمان لا ينفع فيه التقليد . ويقول الباجورى فى ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة مانصه : (والخلاف فى إيمان المقلد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما بالنظر إلى أحكام الدنيا فيكفى فيها الإقرار فقط . فمن أقر جرت عليه الأحكام الإسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، إلا إن اقترن بشىء يقتضى الكفر كالسجود لصنم) وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالإيمان به . والإيمان شىء آخر غير ظواهر الأعمال .

الخطأ والعناد

كان على الغزالى أن يفرق بين من يخطىء فى العقليات بعد اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب إلى الحق أن ينجو من نظر فى الشريعة الإسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا فى وجه المسلمين . ولو أن الغزالى نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابى ، إلا إن أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالى كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك فى عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالمروق .

وقد جرت بينى وبين فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى مناقشة فى هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الأستاذ يرى أن الكفر يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق إلا بالعناد ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأى. وقد نقل الغزالى فى المستصفى «أنه ذهب إلى أن مخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، إن كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور . وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط : لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهؤلاء قد

عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة »وينسب ابن الحاجب إلى الجاحظ أنه قال :« لا إثم على المجتهد مع أنه مخطىء ، وتجرى عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفى الإثم عن المجتهد المخطىء يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التى حدثتك عنها منذ قليل .

ويظهر أنه كان لهذا الرأى أنصار فيما سلف ، فقد جاء فى فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه (وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد فى المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفى الإثم والمعذورية ، لأحقية القول والأجورية) وجاء فى إرشاد الفحول ص ٢٤١ ما نصه (مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه فقيل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعى فمن أصحابه من حمله على ظاهره . ومنهم من حمله على كفران النعم » .

وحكى ابن الحاجب فى المختصر عن العنبرى أن كل مجتهد مصيب . قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العنبرى والجاحظ ، إن أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما فى نفس الأمر ، فباطل ، وإن أرادا أن من بذل الوسع ولم يقصر فى الأصوليات يكون معذوراً غير معاقب ، فهذا أقرب . لأنه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد استفراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكانى ص ٢٤٢ .

ترجيح بلا مرجح

يرى الغزالى فى كتاب «فيصل التفرقة» أن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة ، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار ، إما عرضة خفيفة ، فى لحظة أو فى ساعة ، وإما فى مدة ، حتى يطلق عليها اسم بعث النار . ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لعهده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مقروناً بأكاذيب تصرف المرء عن النظر . ويرى فى كتاب «الصحبة» أنه لا ثواب ولا عقاب إلا على الأفعال الاختيارية .

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيراً من الأمم السالفة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة مشوهة ؟ أليس ذلك لأنهم معذورون ؟ ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره ؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر إليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

وإذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الأقدمون ، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ؟ ولماذا تحكم بنفي الإثم عمن يجتهد ويخطىء فى المسائل الفقهية ، وتحكم بالإثم والكفر على من يجتهد ويخطىء فى المسائل الكلامية ؟ ألا يسع العذر جميع المفكرين على السواء ؟ فإن لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحاً بلا مرجح ، وهو فى رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشىء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المعذورين كما يعامل الكفار . فإنه إذا صح لديه أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور ، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، أقول إذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغير من الله على دينه الذى لم يكلف فيه نفساً إلا وسعها ؟

ولقد أعلم أن الجاحظ لو كان حياً وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن فى هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين . وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفاً من أن علماء المسلمين نظروا إلى هذه المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتنبهوا إلى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح أن القتل الخطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذى يقتل خطأ برىء أمام نفسه ، وأمام ربه ، وأمام الواقع .

وأحب أن أنبه القارئ إلى أنى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعي المدعون أن الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع إن لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فإن المنذور برئ ، ومن الظلم أن يقتل الأبرياء .

٦

الغزالى وسبينوزا spinoza

ولد « سبينوزا » فى أمستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية . وقد اضطهده اليهود لشكه فى تعاليم اليهودية . وهمّ أحدهم بقتله . فاضطر لذلك إلى أن يعتزل فى لاهاى . وصار يكسب قوته بالعمل فى صقل زجاج التلسكوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة وإباء . وعُرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل . حباً فى الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره .

وأهم مؤلفاته traiié théologico-politique وقد نشر فى حياته ، وفيه أخضع الكتاب المقدس للنقد وحرية الفكر . وكتابه éthique ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسبينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء . وأن كل شيء هو الله . وهو فى ذلك يخالف الغزالى إذ يرى لله وجوداً غير وجود العالم . والله فى رأيه هو المدبر لهذا الكون ، ولكن سبينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا فى كل ذرة ، وفى كل حبة ، وفى كل نبتة ، وفى كل ورقة ، وفى كل دابة ، إلى آخر ما فى الوجود . وليس للإنسان حرية ، وإن اعتقد أنه حر ، وإنما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سبينوزا ورموه بالزندقة ، قال الدكتور رابوبرت : « وما كان أبعده عن الإلحاد ، فقد كان مملوءاً بحب الله ، حبا جاءه

عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الألوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه إلا الله[1] » . وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامى والحلاج ، ومن إليهم من القائلين بوحدة الوجود .

وغاية الأخلاق عند سبينوزا هى كمال الطبيعة الإنسانية ، فكل علم لا يفضى إلى ذلك فهوفى رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذا المعنى الأخير : أى فى احتقار كل علم لا يوصل إلى السعادة ، وإن اختلفت غايتهما بعض الاختلاف . فإن غاية الأخلاق عند الغزالى هى السعادة الأخروية .

ومع أن سبينوزا يعمل لكمال الطبيعة الإنسانية ، فإنه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الأمور الاعتبارية ، إذ ليس هذا التميز إلا صورة ننتزعها من الموازنة بين الأشياء . فإذا كان الغزالى يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه . فإن سبينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو الضار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد قوتنا ويعدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع فى سبيلها العوائق . وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن .

ويبقى بعد ماسلف أن السعادة كل السعادة فى إكمال العقل لأنه فى رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة فى الواقع هى طمأنينة النفس ، التى تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شراً إلا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ،وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الأمن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالى فى هذه النقطة الأخيرة.

ومن أظهر الفروق بين الغزالى وسبينوزا نفى الشخصية الإنسانية ، ونفى المسئولية . وهــذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سبينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول . أما الغزالى فيرى وجود الشخصية الإنسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وإن كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئاً بغير هداية الله .

---

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٦٦

الغزالى وجسندى gassendi

ولد « جسندى » فى روفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ .

اشتغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافر إلى هولنده واشتغل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية فى باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها إلى أن توفى سنة ١٦٥٥ .

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة أبيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد . وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هى السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألماً ، ولا قيمة لأى عمل فى نفسه إلا بنسبته إلى اللذائذ والآلام . وقد كان أبيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضا العقلاء ، فكان يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام الوقتية فى سبيل ما يعقبها من اللذائذ الباقية ، ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها فى نفس الأمر وحقيقة الواقع من البعد عن الآلام ، لأن ما فى الخروج على الفضيلة من اللذة ، لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما فى الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيراً من الآلام التى يتعرض لها باقتراف المنكرات .

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهماً غير صحيح ، فحسبوه فقط داعياً إلى اللذة وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى فى عصره تأثيراً شديداً . وحسبه أن كان من تلامذته « موليير » .

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فإن جسندى يرى اللذة غرضاً من أهم أغراض الإنسان . ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لها من الحدود . ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم .

وهنا موضع الخلاف ، فإن الزنا فى نظر الغزالى ليست له أضرار دنيوية ، ولـكنه يذهب بصاحبه إلى النار .

الغزالى ومالبرانش malebranche

ولد «مالبرانش» فى باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيساً خمسين سنة. وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفى بعد مرض طويل سنة ١٧١٥ .

وأهم مؤلفـاته rechecher de la vérité و traité de morale وهو من أنصار ديكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حرية الفـكر إلى أقصى حد . والقاعدة عنده أنه لايصح أن نسلم تماما إلا بالقضايا التى تظهر لنا واضحة إلى حد أنه لايمـكننا أن نرفض التسليم بها ، وإلا تعرضنا لعتب العقل ، وتأنيب الضمير .

والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحب خيرا من الخيرات حبا تاما ، مادمنا نستطيع أن لا نحبه بلا ندم . وهنا يتفق مع الغزالى ، فيقرر أنه لا يجب أن نحب غير الله حبا تاما مطلقا . ونحن نذكر أن الغزالى قرر أن الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لأنه لا نظير له ، لا فى الإمكان ولا فى الوجود .

ويتفق مالبرانش مع الغزالى فى عدم الثقة بأحكام الحواس ، لأنه رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ، ويضيف إلى ذلك شكه فى الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله قصيرا بالنسبة إلى الفرح المسرور . ويرى الساعة على قصرها طويلة بالنسبة إلى المتألم الحزين .

ويتفق الغزالى ومالبرانش فى فهم الرجل الخير ، فإذا كان الغزالى يقرر أنه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فإن مالبرانش يقرر أن الإنسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيدا إلا بقدر ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الإلهية .

ويفترق الغزالى ومالبرانش فى تقدير اللذة . فهى عند الغزالى خير إلى حد محدود ، ثم تنقلب إلى شر . وهى عند مالبرانش خير دائما ، وإن كان التمتع بها لا يفيد دائما ،

لأنها قد تصرفنا عن الله . ويختلفان كذلك فى فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون خيرا ، وإن كان شرا بالفعل . والغرض من ذلك تبرير الاحتمال . أما الغزالى فلا يخص الألم باهتمام خاص ، وإن كان يرحب بكل مايناله من الأذى فى سبيل الله .

* * *

وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارىء بأن يعتبر هذا الباب لمعة يسيرة فى جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة المحدثين، وأحضه على إتمام ما فاتنى إتمامه ، والله بالتوفيق كفيل .

الباب الرابع عشر

فى آراء علماء العصر فى الغزالى

تمهيد

لايوجد هذا الباب فى النسخة التى قدمت للجامعة المصرية ، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تتميما للسلسلة التاريخية ، التى أردت أن أبين بها قيمة الغزالى فى مختلف العصور .

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم فى الغزالى بجرأة وصراحة . وحجتهم فى ذلك أن الرأى العام لايقبل فى الغزالى غير المدح الخالص ، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لايستطيعون أن يبدوا شيئاً من سيئاته فى العلانية ، كما لايمكنهم أن يذكروا حسناته مجردةً من النقد ، وإلا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء ؟

وإذ كانت الخطة التى جريت عليها فى نقد الغزالى تقضى علىَّ بنشر ماله وما عليه ، عملاً بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه فى هذا العصر ، وأدونها كما هى بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً فى ذلك على محادثات خاصة دارت بينى وبينهم ، وعلى سند كتابى فيما يتعلق برأى حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار . وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة خاصة : لأنى لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشىء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التى قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر فى مصر لاظهير لها ولا نصير .

١

رأى الدكتور منصور فهمى

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه مايقدَّر لأمثاله عادةً من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة فى سنة ١٩١٣ مجاراةً للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شاع إذ ذاك من أنه رمى النبى عليه السلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين ، فنصحه يومئذ بأن يصلى الجمعة فى الأزهر ليكون فى ذلك قطع لألسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن يرجعه إلى الجامعة ، ويصل من عمله ماانقطع ، ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالإيمان ، لأن الله على إيمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفقه به ، وظل بعيداً عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع إليها عالى الرأس فى سنة ١٩٢١ .

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالى نال بها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه فى الغزالى قيمة خاصة . وهو لايعد خصما للغزالى ولا نصيراً له ، وإنما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات ، ويغفر له أغلاطه ، لأنه كأكثر المؤلفين لعهده يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب .

٢

رأى الشيخ على عبد الرازق

الأستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتازمن بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان فى الأزهر منذ اثنى عشر عاماً ، وأماليه فى علم البيان دليل على عقليته النادرة . ولو مضى فى التأليف لأصبح قليل الأمثال .

وقد درس الغزالى بعناية ، وهو يقف إزاءه موقف الحياد .ويقرر أن الغزالى أوجد حركة فكرية فى العالم الإسلامى . أما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين .

٣

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير فى الأزهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله فى دروسه الخاصة وبين مايدونه فى تلك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه إلى أفهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسالته الصغيرة فى تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيراً على هجره لهذا الأسلوب البديع ، وإقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التى تذكرنا بكتاب الإحياء .

ويكاد يُعدّ الشيخ الدجوى خليفة للغزالى فى هذا العصر ، ففيه تقريباً كل خصائصه ، من القدرة ، والإخلاص ، وقوة النفوذ ، وبعض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ماله من الحدود .

٤

رأى الأستاذ جاد المولى بك

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر . تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثانى ، فسافر فى أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيراً للمعارف فى سنة ١٩٠٧ فقضى ثلاث سنين فى الكلية الجامعة بمدينة ردنج . ثم عين فى سنة ١٩١٠ مساعداً لأستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد فى سنة ١٩١٣ فعين فى قلم الترجمة بوزارة الأشغال فقضى بها ثلاث سنين . وفى سنة ١٩١٦ نقل إلى الديوان العالى ، وظل فى خدمة البيت المالك إلى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشاً بوزارة المعارف العمومية .

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين ليشتركا فى الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويذكر الجمهور أن الأستاذ جاد المولى بك كان

يتأجج غيرة على الغزالى ، وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى . فبدا لى بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت إلى منزله لهذه الغاية ، فتفضل وأطلعنى على المحاضرات التى كان ألقاها عن الغزالى فى سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والأستاذ جاد المولى بك لا يشك فى أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالى فى نشره وإذاعته . وقد كان الأستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثنى عن ذلك بما كتبه الأستاذ الغمراوى بك فى كتاب الغرائز ويقول : إن الصوفى هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة إلى النواحى النافعة ، كذلك يجب على الصوفى أن يراقب حركات المريدين . لأن التصوف ليس إلا رياضة للنفوس .

وبالرغم من عناية الغزالى بالتصوف ، فان الأستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين وقد سألته عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه يريد به النهوض بالأفكار الإسلامية التى آمن بها الغزالى ، والتى كاد يقضى عليها تيار الفلسفة إذ ذاك .

٥

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش إمام من أئمة المسلمين فى هذا العصر . وهو معروف فى جميع الأقطار الإسلامية ، وله أبحاث فى فلسفة التشريع تعز على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفى والاضطهاد أيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب ، وعده الإنجليز من ضمن أعدائهم الألداء فى الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخطر المخيف .

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالى . فهو أولا يؤمن بقوة الغزالى ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه إلى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلا » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالى بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذيوع إسمه فى العالمين . ويقرر الشيخ جاويش أن

الغزالى متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف فى الكتاب الواحد ، ولأنه لم ينكر شيئا إلا وقد قال به فى بعض أحواله .

٦

رأى الكونت دى جالارزا

ظل الكونت دى جالارزا أستاذاً للفلسفة فى الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر فى كرم الأخلاق . وله مؤلفات فى الفلسفة لاعيب فيها غير الغموض ، وعذره فى ذلك أنه أجنبى عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ، ويعجب كثيراً بوجهته الروحية وله على الغزالى مأخذ واحد : وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئاً من العلوم . ويرى أن الغزالى حرم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة ، وإن كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع ، من سواد الناس . والغزالى فى رأيه غاية الغايات فى الإخلاص .

٧

رأى الدكتور العنانى

الدكتور على العنانى من كبار الأساتذة فى هذا العصر ، وقد مكث فى ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة ، وهو من أساتذة الجامعة المصرية .

والدكتور العنانى ينظر إلى الغزالى نظرة خاصة ، من حيث تطور الفكر الإسلامى فهو يرى أن الفكرة الإسلامية كانت تعتمد أولا على الوحى ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحى استقلالا تاماً ، فرأى الغزالى أن يقف فى وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم فى الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة إلى الأندلس ، ووجدت هناك مرعاها الخصيب .

والدكتور العنانى يرى أن الغزالى سلك تلك السبيل خضوعاً للرأى العام فى البداية ، ولكنه تأثر بما دعا إليه فى النهاية ، وعاد حرباً للعقل ، وسلاماً للمبادىء الروحية . وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيميمة من رجوعه إلى ظاهر الشريعة ، فإن الرجل كان أُخذ أخذاً بمذاهب الصوفية ، وإن كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس .

٨

رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر أن يفوته شىء من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس بروح العرب والإسلام . وقد درس الغزالى دراسة جيدة . وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارئ فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء . وقد قابلته أخيراً فذكر لى أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالى من تحريم الغناء فى أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالى محق فيما يقرر من الاكتفاء بإباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم . لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال .

ورأى الشيخ النجار فى الغزالى رأى وسط : فهو يرى أنه فى جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شىء من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر إلى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه فى ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة فى متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع ويقول : هذا الفقير إما أن يكون فى حالة صحو أو فى حالة ذهول : فإن كان ذاهلا فهو معذور ، ولا حكم له ، وإن كان صاحياً فهو عابث ، لأنه مامعنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواه ؟ إن هذا إلا إتلاف :

٩

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه شغل بالإدارة عن التأليف لـكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين فى الأصول والتوحيد والأخلاق .

ويعد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن وجهته فى التصوف لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الإسلامية ، والغلو الذى نراه فى الإحياء ليس إلا تمكيناً للمعانى التى يدعو إليها الغزالى . وهو لا يرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وإنما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال . والغزالى عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار . ومن البعيد أن يضع حديثاً فى كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والإخلاص .

١٠

رأى الشيخ عبد الباقى سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقى سرور من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين المعقول والمنقول وكتابه عن « ماضى الإسلام وحاضره » الذى نشره فى جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة والاجتماع . وهو فوق ذلك أغير الناس على وطنه ودينه ، وإنه لعلى خلق عظيم .

ويرى الشيخ عبد الباقى أنه ليس للغزالى مذهب خاص ، وإنما يتنوع دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى كتبه من تباين الآراء : فقد كان يحتج

بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو يناقش الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع في يده كل الأسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره . والشيخ عبد الباقى يرى أن التصوف فى كتب الغزالى إنما كتب للصوفية ، لا لجميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين . ودليل هذا رجوعه فى أخريات أيامه إلى دراسة كتب السنة حتى ليذكروا أنه مات والبخارى على صدره . ولعدم اختصاص الغزالى بمذهب خاص وجهة شريفة ، هى تحرى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهده من مختلف المذاهب . وهذه الوجهة يرى الشيخ عبد الباقى ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية ، التى تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع بثمرات العقول .

١١

رأى الشيخ أحمد أمين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فإن كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التى تغرس الحياة فى نفس المستفيد . وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذى يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير فى الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل .

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالى حوّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم إلى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية . وحبب ذلك إلى الناس . وأسلوبه فى الترغيب والترهيب أنفع الأساليب فى هداية الجماهير . ويرى معنا أن الغزالى لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه . وأن آراءه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شىء .

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارئ ما وفقنا إليه فى درس الأخلاق عند الغزالى ، نوصيه بأن يرجع إن شاء إلى كتاب الإحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، وإلى المصادر الأجنبية التى ذكرناها فى غير هذا المكان ، وإلى كل ما يستطيع الوصول إليه مما يتعلق بالغزالى ، ليعرف صحة ما فى هذا الكتاب من مختلف الأحكام .

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة فى نقد الغزالى ، ولكنا نرجو أن يتنبه القارئ أيضاً إلى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته . ونحب أن يذكر الذين أسرفوا فى اللوم عند ما علموا بعض مايحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لإرضائهم أو إغضابهم، وإنما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هى خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس .

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أنى ترددت فيما نصحنى به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التى ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئاً ، وإنما أضفت إليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وإنما أنا وحدى المسئول .

***

أما بعد فإنى أسأل الله أن يجزينى بفضله على ما قدمت فى سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد منىَ الناس بالجحود ، ونكران الجميل .

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الاسلام والاخلاق (*)

يقول المرجفون إنى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق . ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الأكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاماً يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الإسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل .

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا إلى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث !

قلت فى رسالتى : « إن ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة إلى الرهبنة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق » فلما سألنى حضرات الأساتذة المتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراماً ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب » .

وهنا لا أكتم القارىء أنى حملت على الغزالى حملة شديدة ، ورميته بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التى وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : إذ يدعوه إلى أن لا يترك فى البيت متاعا يحرص عليه السراق ، وإلى أن لا يحزن إذا سرق متاعه

---

* نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤ .

بل يفرح إذا أمكنه ، وإلى أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل على تأسفه على مافات ، ويدعوه إلى أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالما !

ثم قلت فى التعليق على هذه الآداب الميتة « وما أدرى ما الذى أنسى الغزالى أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحاً وإن يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل . من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف » ! !

عند ذلك تذمر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الأستاذ الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالى فى ذلك لأن الدين الإسلامى دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق فى شىء أن يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت فى ذلك الصواب ؟

والظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلا ياهؤلاء ! الدين الإسلامى دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » إنما تجارون الأجانب الذين يتوددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضا بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فإن الدين الإسلامى أبعد الاديان عن الزهادة ، وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الإسلام فى أن يرغب أتباعه فى امتلاك ناصية العالم ، فإن هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية ، أو ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها فى الحياة ، وإنما ترغم الأمم الضعيفة ، أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : إن رسول الله وأصحابه لم يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان بل أمروهم بالرفق بهم ، والإبقاء عليهم ، كما أمروهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول .. وأقول لكم : إن هذه المعاملة لا تدل على أن الإسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الإسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتنفير القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية فى استلال السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين .

هذا ما أريد من أن الإسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله اليوم ، ورأى ما أنتم عليه من قلة وذلة ، لبلل رداءه بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيبا . أفتحسبون أن قوله عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادىء السقيمة ، التى دافع عنها الغزالى وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم فى ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

أنا لا انكر أن التوكل فضيلة ، ولكن أنكر أن يكون معناه الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق ، وإنما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمداً على الله (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على أن يكون صبراً على الجهاد لا صبراً على الضيم . والخمول فضيلة . ولكن على معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حساباً . فأما ما نقل الغزالى من أن بعض العلماء كان يترك الدرس إذا زاد الطلبة عن ثلاثة إيثاراً للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما يصفون !

ومن العجيب أن نجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبى وخلفائه ، وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبى وخلفائه فضيلة قضت بها الضرورة، وها نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير إلى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحنق المغيظ ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم إلى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الأمور . ولو قضت الظروف إذ ذاك بأن يكون النبى فرداً من جماعة يسوسها غيره ، لرأيناه ينمى ثروته ، ويسعى جاداً فى استغلال مايملك من أرض أو مال . . على أنى أعلم من سيرة رسول الله ما يدل على أنه كان ينظر إلى الدنيا بعين ملؤها الحب والإعزاز ، وحسبنا أن نتلوا قول أصدق القائلين : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونه قال : آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنتين أو حسنات ؟ ! أو ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة ؟

من أجل هذا ترونني أنكر أن تكون « الأخلاق » فى الإسلام معناها الرضا بالموجود وإن قل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالى بعد ما عاشرته فى مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هذا البيان ؟

إلى الدكتور زكى مبارك

قصيدة لحضرة الشاعر المبدع السيد حسن القاياتى

ماذا اعتزمتَ وما نَوِيتَهْ العلم أيْسَرُ ما وَعَيْتَهْ
اليومَ رُحتَ بغبطةٍ فاهنأْ زكىُّ بما جنيتَه
للكون سرٌّ لو سموْ تَ إليه فى دَعةٍ حَوَيتهْ
لم تقضِ مصرُ دَيْنَها للعلمِ إلا مُذْ قضيتهْ
يسمو برأسك أنه للحق أكثر ما حنيتهْ
قيل الضلالُ وإنما نور الهداية ما اجتليتهْ
دينٌ عصيتَ بهِ النُّهى والعلمَ كالزيغ اتّقيْتَهْ
إن الجحود مسوَّدٌ أطربتنى لمّا نَعيتَهْ
لا تَشْكُ زفرة حاقدٍ من صدره أنت اشتويتهْ
كم يحسدون محسَّدًا فى علمِهِ ، فهل اجتديته ؟
تِهْ بالكتاب فإنّهُ عن قلب أوّابٍ رويتَهْ
للعلمِ عرشٌ لم تزلْ تسبى النهى حتى رَقيتَهْ
إيهٍ لحدنك إنّهُ أصغى لسحرك فاستبيتهْ

حسن القاياتى

للدكتور زكى مبارك

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأفكار الغراء فى يوم الأحد ١٨ مايو سنة ١٩٢٤ الكلمة الآتية :

كان منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر الخميس الماضى موعد امتحان الأستاذ زكى مبارك فى الجامعة المصرية لإحراز شهادتها النهائية ، فما دنت الساعة الرابعة حتى غص مكان الامتحان بجماعة من كبار العلماء والكتاب وطلبة الجامعة وطلبة المدارس العالية ومحبى العلم وأنصاره .

وما آذنت ساعة الامتحان حتى أخذ أعضاء اللجنة أماكنهم ، وهم حضرات الأساتذة الشيخ عبد الوهاب النجار ، والدكتور أحمد ضيف ، والأستاذ عبده خير الدين ، وصاحب العزة محمد بك جاد المولى . وكانت رياسة اللجنة للدكتور منصور فهمى . وجلس أمامهم الأستاذ الشيخ محمد زكى عبد السلام مبارك ليمتحنوه فى رسالته « الأخلاق عند الغزالى » وموضوعيه اللذين اختارهما « الرق فى الإسلام » و « الصور الشعرية » .

بدأ الأستاذ النجار يلقى على الممتحن السؤال إثر السؤال ، وكانت أسئلته غاية فى الدقة ، وكذلك كانت الأجوبة ، إلا فى بعض مواضع نادرة جداً ، كان فيها الشيخ زكى عليما بسبل التخلص منها ، وخبيراً بما يقبل فيها من الأعذار . ثم بدأ محمد بك جاد المولى مندوب وزارة المعارف يسأل : فكانت أسئلته أسئلة عالم محقق ، عنى بدرس الرسالة وبدرس الغزالى معاً ، فكان إعجاب السامعين بها شديداً جداً ، وكذلك كان إعجابهم بالمجيب فى أكثر ما سئل عنه . ثم تتابع السائلون حتى تم الامتحان فى الرسالة وفى الموضوعين .

ولقد كان موقف رئيس اللجنة وهو الدكتور منصور موقف الأستاذ الرحيم المشفق بتلميذه ، الطروب المعجب به معاً ، كان رحيما مشفقا حين تشتد الأسئلة وتقسو ، وكان طروبا معجبا حين يرى تلميذه قد خلص منها على فرط شدتها خلاص الحر من نسج الفدام .

أما الشيخ زكى مبارك ، أما زكى أفندى مبارك ، أما الدكتور زكى مبارك ، فقد دل الممتحنين على الإحاطة التامة بما درس ، وقوة الترجيح فيما رأى ، وصحة المذاهب فيما ذهب . ورأوا فيه فوق ذلك ثباتا وجرأة قلما تتوفر لكل طالب فى موقف كهذا الموقف . ولقد كانت أجوبته دليلا على أنه حر الفكر ، حر الضمير ، لا يتقيد إلا بما يحس أن العقل يطالبه بالتقيد به ، ولا يذعن إلا بما يؤمن بأن العلم يكلفه الإذعان له .

فلقد دارات أسئلة حول القديم والجديد ، أو حول الإطلاق والتقييد و كان أنصار القديم كثيرين ، وأنصار الجديد قليلين ، أو كانوا كثيرين ولكن لا يحبون أن يظهروا ، ولكن لم يجد زكى مبارك حرجا فى أن يظهر ، ولم يجد حرجا فى أن يصدم من أنصار القديم ، ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم يغضبون ، ورآهم يثورون ، ليهدئ من ثورتهم ، ويخفض من غضبهم ، فدل بهذا على أنه حاذق لا يغفل المداراة ، حين لا تكون سبيل غير المداراة .

كذلك كان صديقنا زكى مبارك فى هذه الجلسة التى عقدت لامتحانه ، ومنحه شهادة الدكتوراه . وهل كان غير ذلك وهو طالب فى الأزهر الشريف وفى الجامعة المصرية ؟ فنحن نهنىء الأستاذ بهذا النجاح ، ونهنىء الجامعة بأن كان زكى مبارك ابنها الخامس الذى أحرز شهادتها العليا بدرجة « جيد جداً » سائلين الله أن يكثر لها من هؤلاء الأبناء البررة الذين يخدمون العلم ، ويخدمون الأمة ، بخير ما تخدم به الأمم » .

فهرس

الصفحة	الموضـــوع
٨	فاتحة الـكتاب

الباب الأول

الصفحة	الموضوع
١٠	العصر الذى عاش فيه الغزالى
١٢	الدولة السلجوقية
١٤	الباطنية
١٦	الحروب الصليبية
١٨	المدارس النظامية
٢١	روح ذلك العصر
٢٥	البلدان التى عرفها الغزالى
٢٥	طوس
٢٧	نيسابور
٢٩	جرجان
٣٠	دمشق
٣٣	بيت المقدس
٣٥	أعيان ذلك العصر
٣٥	الشهرستانى
٣٦	الأبيوردى
٣٦	الارجانى

الباب الثانى

الصفحة	الموضوع
٣٨	حياة الغزالى
٣٩	أسرته
٤١	مولده ونشأته
٤٣	حياته الروحية
٤٤	فهمه للحياة
٤٨	وفاته ورثاؤه

الباب الثالث

الصفحة	الموضوع
٥١	المنابع التى استقى منها الغزالى
٥٤	المصادر الفلسفية
٥٦	إخوان الصفا
٥٧	الفارابى
٥٨	ابن سينا
٥٨	ابن مسكويه
٦١	منبع التصوف
٦١	أصل التصوف
٦٢	أنفاس الصوفية
٦٣	قوت القلوب
٦٣	الرسالة القشيرية
٦٥	من عرف الغزالى من الصوفية
٦٥	الإمام الشافعى
٦٦	المزنى وحرملة والمحاسبى
٦٧	الجنيد
٦٨	منبع الشريعة
٦٨	الإنجيل
٧١	أساتذة الغزالى وأصحابه

الباب الرابع

الصفحة	الموضوع
٧٢	مؤلفات الغزالى
٧٤	طريقته فى التأليف
٧٦	الصوت المردد فى مؤلفات الغزالى
٧٧	كتاب الإحياء
٧٩	أغلاط الإحياء
٨٥	غفلة الغزالى وعناده
٨٧	الـكذب على الغزالى

الباب الخامس

الصفحة	الموضوع
٨٩	الخير والشر
٩٠	الحسن والقبيح
٩١	مثارات الغلط
٩١	نقض حجة المعتزلة

الصفحة	الموضـــوع
٩٢	تحرير هذا البحث
٩٣	الضار والنافع
٩٤	العمل والاعتقاد
٩٦	مقياس الخير والشر
٩٦	إغفال الغزالى لهذا المقياس
٩٨	الإرادة
١٠١	تربية الإرادة
١٠٢	أهمية الإرادة
١٠٢	الجبر والاختيار
١٠٦	الضمير
١٠٨	الأغراض والنتائج
١١٠	الوسائل والغايات
١١١	وضع القصص

الباب السادس

١١٣	الأخلاق
١١٤	تعريف الخلق
١١٥	تربية الخلق
١١٥	كيف يربى الخلق
١١٧	إمكان تغيير الخلق
١١٧	أقسام الطبائع
١١٨	كيف يعرف المرء عيوب نفسه
١١٩	علامات حسن الخلق
١٢٠	الطريق إلى تهذيب الأخلاق
١٢٢	غاية الأخلاق
١٢٣	مناقشة قصيرة
١٢٤	هل تورث الأخلاق
١٢٥	تحرير هذا البحث

الباب السابع

١٢٧	تحديد الفضيلة
١٢٨	أمهات الفضائل
١٢٨	الفضائل السلبية
١٢٩	الفضائل الفردية
١٢٩	درجات الأخلاق

الصفحة	الموضـــوع
١٣٠	فضيلة الصدق
١٣١	مراتب الصدق
١٣٢	فضيلة الصبر
١٣٣	أسماء الصبر
١٣٣	درجات الصابرين
١٣٤	حكم الصبر
١٣٤	ضرورة الصبر
١٣٥	تحصيل الصبر
١٣٥	فضيلة الخمول
١٣٦	فضيلة التوكل
١٣٧	كراهة السؤال
١٣٨	حكم الكسب
١٤١	مقامات المتوكلين
١٤٢	توكل المعيل
١٤٣	الادخار
١٤٣	آداب المتوكلين
١٤٤	توكل الخائف
١٤٥	توكل المريض
١٤٧	ملاحظات ثلاث
١٤٩	فضيلة الإخلاص

الباب الثامن

١٥١	توقى الرذائل
١٥٢	رذيلة الغضب
١٥٤	دوء الشر بالشر
١٥٥	رذيلة الحقد
١٥٦	رذيلة الحسد
١٥٧	رذيلة العجب
١٦٠	رذيلة الكبر
١٦١	آفات اللسان
١٦٣	الكلام فيما لا يعنى
١٦٤	فضول الكلام
١٦٤	الخوض فى الباطل
١٦٤	المراء والجدال
١٦٥	الخصومة
١٦٦	التقعر فى الكلام

الصفحة | الموضـــوع

١٦٦ الفحش
١٦٧ اللعن
١٦٧ المزاح
١٦٧ الاستهزاء
١٦٨ إفشاء السر
١٦٨ الوعد الـكاذب
١٦٨ الـكذب فى القول واليمين
١٦٩ الغيبة
١٦٩ النميمة
١٧١ كلام ذى اللسانين
١٧١ المدح
١٧٢ الغفلة
١٧٢ السؤال عن صفات الله
١٧٣ رذيلة الرياء

الباب السابع

١٧٥ العلوم
١٧٦ مناقشة قصيرة
١٧٧ الشك طريق اليقين
١٧٨ علم الفقه
١٧٩ علم التوحيد
١٨١ الفنون
١٨٢ الشعر
١٨٣ الموسيقى
١٨٤ الغنـاء
١٨٥ غناء المرأة والأمرد الجميل
١٨٦ موضوع الغناء
١٨٦ ما يباح من الغناء
١٨٧ آداب السماع
١٨٨ الرقص
١٨٩ النقش والتصوير
١٩٠ خلاصة هذا البحث
١٩١ تربية الأطفال
١٩٢ تربية البنات
١٩٥ آداب المعلمين
١٩٨ « المتعلمين

الصفحة | الموضـــوع

الباب العاشر

٢٠٠ واجب المرء نحو نفسه
٢٠١ واجبه نحو إخوانه فى الدين
٢٠٣ حقوق الجوار
٢٠٥ حقوق الأقارب
٢٠٥ حقوق الوالدين
٢٠٦ حقوق الأبناء
٢٠٦ واجب التاجر
٢٠٨ آداب المسافر
٢٠٩ حقوق المرأة
٢١٠ الرفق بالمرأة
٢١٣ واجبات المرأة
٢١٤ آداب الـكتاب
٢١٥ واجبات الملوك
٢١٧ حقوق الوزراء
٢١٨ معاملة الملوك الظالمين
٢١٩ حقوق الأخوة
٢٢٠ حب المرء لذاته ولجماله
٢٢٠ الحب للمنافع الدنيوية
٢٢٠ الحب لمنافع الأخروية
٢٢١ الحب لمنافع الدنيا والآخرة
٢٢١ الدنيا خليقة بالحب
٢٢٢ الحب لله
٢٢٢ ميزان الحب
٢٢٣ ما للأخ على أخيه
٢٢٣ حقوق الأخ المذنب
٢٢٤ البغض فى الله
٢٢٤ العصيان بالاعتقاد
٢٢٥ العصيان بالفعل
٢٢٦ نتيجة
٢٢٦ آداب الزواج
٢٢٧ الخروج من المظالم
٢٢٧ مظلمة العرض
٢٢٨ مظلمة المـال
٢٢٩ صرف المـال الحرام

الصفحة الموضـــوع

٢٢٩ مظلمة النفس
٢٢٩ واجب الاحتساب
٢٣٠ شروط المحتسب
٢٣١ المنكر المنهى عنه
٢٣٢ صفات المرشد
٢٣٢ أنواع المنكرات
٢٣٣ درجات الاحتساب
٢٣٣ إرشاد الأمراء

الباب الحادى عشر

٢٣٥ تأثير الغزالى فى عصره وما تلاه من العصـــور
٢٣٥ تجديده القرن الخامس
٢٣٦ المنامات والأحلام
٢٣٨ تلامذة الغزالى وأصحابه
٢٣٨ مؤلفاته وفتاويه
٢٤٠ علاقة الفقه بالأخلاق
٢٤١ تأثير الإحياء
٢٤٤ الانتفاع بمؤلفات الغزالى
٢٤٥ عناية الأجانب بالغزالى
٢٤٧ الفوز للحياة

الباب الثانى عشر

٢٤٩ أنصار الغزالى وخصومه
٢٤٩ ابن رشد
٢٥٢ ابن تيمية
٢٥٤ ابن القيم
٢٥٥ السبكى
٢٥٥ الزبيدى

الباب الثالث عشر

٢٥٦ الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحـدثين
٢٥٦ الغزالى وديكارت

الصفحة الموضـــوع

٢٥٧ مؤلفات ديكارت
٢٥٧ شكوك ديكارت
٢٥٨ الفرق بين الغزالى وديكارت
٢٥٩ أسلوب ديكارت
٢٦١ الغزالى وبسكال
٢٦٣ الغزالى وهوبس
٢٦٥ الغزالى وبوتلير
٢٦٥ الغزالى وكارليل
٢٦٧ الكفر والإيمان
٢٦٧ رأى الغزالى فى الاجتهاد
٢٦٨ تحرير هذه المسألة
٢٦٩ الخطأ والعناد
٢٧٠ ترجيح بلا مرجح
٢٧١ ظلم الأبرياء
٢٧٢ الغزالى وسبينوزا
٢٧٤ الغزالى وجسندى
٢٧٥ الغزالى ومالبرانش

الباب الرابع عشر

٢٧٧ آراء علماء العصر فى الغزالى
٢٧٨ رأى الدكتور منصور فهمى
٢٧٨ رأى الشيخ على عبد الرازق
٢٧٨ رأى الشيخ يوسف الدجوى
٢٧٩ رأى الأستاذ جاد المولى بك
٢٨٠ رأى الشيخ جاويش
٢٨١ رأى الكونت دى جالارزا
٢٨١ رأى الدكتور العنانى
٢٨٢ رأى الشيخ عبد الوهاب النجار
٢٨٣ رأى الشيخ حسين والى
٢٨٤ رأى الشيخ عبد الباقى سرور
٢٨٤ رأى الشيخ أحمد أمين
٢٨٥ خاتمة الكتاب
٢٨٦ الإسلام والأخلاق
٢٨٩ قصيدة السيد حسن القاياتى
٢٩٠ كلمة « الأفكار »

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عربية وفرنسوية . أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالى ، وهى : إحياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والأربعين فى أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والأدب فى الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ، وإلجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والإملاء على ما أشكل من الإحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى فى الأصول .

ومما يتعلق بالغزالى من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، وشرح الإحياء للزبيدى وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة فى المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى ، وحياة الغزالى للدكتور زويمر ، وفتاوى ابن تيمية ، واعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقال لابن رشد ، ومحاضرات الكونت دى جالارزا فى الجامعة المصرية سنة ١٩و٢٠ . ومبادىء الفلسفة تعريب أحمد أمين ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومعجم البلدان لياقوت .

وأم المصادر الفرنسوية :

gazali. par Carra de Vaux

études sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et gazali. par Moher

traité d'éschatologie musulemane. par lucien gautier

encyclopédie de l'islam (20e livre)

histoire de la philosophie. par paul Janet

cours de philosophie. par e. boirac

averroës. par e. renan

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة


Bibliotheca Alexandrina
05933346